نصوص من الفلكلور الكردي

صاحب الامتياز
حافظ قاضي

رئيس التحرير
مؤيد طيب

حقوق الطبع محفوظة

- **تسلسل الاصدار:** (١٩٧)
- **عنوان الكتاب:** نصوص من الفلكلور الكردي
- **اعداد وترجمة:** حنيف يوسف
- **تصميم:** اراز حسين طيب
- **الغلاف:** بيار جميل
- **لوحة الغلاف:** سردار كيستيي
- **الاشراف الطباعي:** شيروان احمد طيب
- **الطبعة:** الاولى
- **عدد النسخ:** (١٠٠٠) نسخة
- **رقم الايداع:** ( ) لسنة ٢٠٠٧
- **مطبعة حجي هاشم - اربيل**

العنوان
كوردستان العراق – دهوك
مبنى اتحاد نقابات عمال كوردستان
الطابق الثالث
هاتف: ٧٢٢٥٣٧٦ - ٧٢٢٢١٢٥

www.spirez.org
www.spirezpage.net

دار سپيرێز للطباعة والنشر
SPIREZ PRESS & PUBLISHER

نصوص من الفلكلور الكردي

اعداد وترجمة

حنيف يوسف

2007 السليمانية

الفهـرسـت

تقديم ٧

حكايات وقصص الفلكلور الكردي - **دراسة** ١١

جُرْد الذقون - **حكاية** ١٩

الثعلب والعجوز - **حكاية** ٢٧

إبنة رجل فقير أصبحت كتة أحد الباشاوات - **حكاية** ٣١

ما من كائن أو شئ في الوجود أكثر سوءاً من ابن آدم - **حكاية** ٣٥

الطمع يقتل صاحبه ٣٩

الحمار لا يصبح ملكاً ٤١

الواقع والخيال الفلكلوري - درويشي عفدي أم دلال؟ ٤٣

درويشي عفدي ٤٥

دلال – **مقدمة** ٥١

- دلال أو تداعيات عدولة (الرواية الاولى) - **ترجمة الاغنية** ٥٣

- دلال (الرواية الثانية) ٦٧

درويش عفدي بشكلها الخيالي كما رواها بيتاز- **اغنية مترجمة** ٩٣

ظالم بك وناصر بك - **حكاية مغناة** ١٠٧

فاطمة صالح آغا - **حكاية** ١٢٥

جبلي - **مقدمة** ١٣٥

جبلي - **القصة** ١٣٧

تـقـديــم

أن تكون أو تكون

لعله من حسن حظ الأدب - وربما من سوء حظه - انه في أشكاله المختلفة، اربتط، ومنذ بدايات نشوئه، بنمط الحياة وسياسة الحياة - بالمعنى الفلسفي الأنطولوجي للسياسة - وهذا الارتباط كان متبادلاً في علاقة متفاعلة ذات تأثير وتأثُر، فعل ورد فعل، أخذ وعطاء، ومن ثم نتائج وأسباب أو بالعكس أيضاً، أسباب ونتائج، وبتعبير آخر، نستطيع القول أن ذلك كله، يلخص واقع ارتباط ظواهر الحياة المختلفة والمتعددة الاختلاف، بعضها ببعض، في تكونها ونشوئها وارتقائها بما يعني استحالة الفصل الميكانيكي فيما بينها، تأكيداً لشمولية قانون الطبيعة في حقلها الحياتي - الاجتماعي، في سياق علاقة الجزء بالكل، والكل بالجزء، ومفهوم الكليات والجزئيات، في ترابطها المتبادل، توخياً لعملية التطور والارتقاء بأوسع المعاني وأكثرها وضوحاً.

إن ذلك لا يعني أن كل ظاهرة أدبية تجد سببها المباشر – الآني، بشكل تلقائي، في شروط وجودها التاريخي، ولكن الصلة بالوجود الاجتماعي تبقى قائمة دائماً، وبصمات هذا الوجود تكون واضحة ومطبوعة في متون تلك الظاهرة.

على أية حال تبقى هذه الأمور موضع جدل حسمته – كما أعتقد – أكثر من مرة الاتجاهات الفكرية والنقدية الأدبية في اطروحاتها المتباينة بخصوص ذلك، وما ذكرته هو فقط من قبيل الاشارة الى شيء أعتقد أنه من المفيد التنويه به وعدم القفز فوقه، ولو أن الموضوع قد أصبح منذ زمن طويل في حكم البديهيات والمسلّمات بالنسبة الى غالبية وجهات النظر المتخصصة.

في جميع الأحوال، من الممكن العثور على الجوانب الملموسة لتأثير ظروف الحياة على النتاج الأدبي، وإذا كان هذا معروفاً على صعيد الأدب المكتوب والنتاجات الابداعية المكتوبة، فإنه بالنسبة للأدب الشفوي المتوارث من جيل الى جيل والمتناقل حكائياً من مرحلة تاريخية الى أخرى، تكون العملية أكثر وضوحاً وتجذراً وتعقيداً في ذات الوقت، أي أننا نجد تأثير ظروف الحياة الوضعية الخاصة بكل مرحلة تاريخية على النص الشفوي،

الى درجة أننا قد نجد اعادة خلق أو انتاج جديد لهذا النص – وبذات الاسم والعنوان – في كل مرحلة تاريخية على حدة، وهكذا قد نجد تراكمات عديدة لمراحل مختلفة وآثار هذه المراحل في ذات النص المتوارث شفوياً، قد يكون هذا بسبب في بنيته وحركيته الداخلية، وأدائه لوظيفته الاجتماعية.

هنا أجد نفسي، قبل المضي في الحديث عن عملية تطور النص الشفوي عبر مراحل تاريخه، أجد نفسي أمام سؤال وظيفة الأدب والفن، وهو سؤال ناقشته نظرية الأدب العالمي طويلاً، وبالارتكاز على خلاصة مقولات نظرية الأدب في مفهومها العلمي، يمكنني القول أنه دائماً كانت هناك وظيفة للأدب أو مجموعة وظائف متنوعة، تبدأ بما هو معرفي وتنتهي أو لا تنتهي بما هو جمالي، مروراً بالجوانب التربوية والتعليمية والايديولوجية وحتى العلمية.... الخ.

وما يهمني هنا هو محاولة التأكيد على وظيفية دور الأدب - الكتابي والشفهي معاً- في حياة الناس، وهذا ما لمسته تماماً أثناء استقراءاتي لمعطيات الحياة الكردية وآدابها الشفهية - بقدر ما أتاحت لي الظروف والامكانات - .

ولتوضيح حالة التراث الشفوي الكردي ودوره ومحتواه، لا بد من الاشارة الى ظروف القمع السياسي الذي أحاط – وحتى الآن – بحياة الشعب الكردي، الذي توزع وطنه كردستان الى أقاليم ملحقة بأربع دول في الشرق الأوسط (تركيا، إيران، العراق، سورية)، وقد بلغت ضراوة هذه الظروف اللانسانية درجة مخيفة من هيستريا القمع واتخذت أشكالاً مختلفة من سياسات الصهر القومي والتذويب العرقي المبرمجة، وحتى أحياناً محاولات الإبادة الجماعية والتصفية الجسدية الشاملة، وحملات تهجير قسرية لتغيير ديموغرافيا كردستان.

هذا الى جانب التراكمات الاستبدادية القاسية والظالمة التي خلّفتها طبيعة التشكيلات الاجتماعية والنظم الحاكمة تاريخياً في منطقتي الشرق الأوسط وآسيا الصغرى، وتأثير مرحلة ظهور الاسلام من ثم الحروب التوسعية أو ما سمي ب " الفتوحات " التي أعقبت ذلك، وطغيان الظاهرة الكولونيالية في شكلها الديني، وانتشار الاسلام كدين وتشريع حقوقي سماوي وأرضي ومشروع سياسي وايديولوجي جاء في محصلته عربياً في أهم محطاته، سواء في انطلاقته أو في تطوره، وهذا الحدث التاريخي الكبير انعكس بفعالية شديدة على وضع المنطقة، وأدى الى احداث تغييرات جذرية في البنى الاجتماعية،

وهيكليات حياة باقي الشعوب، وأدى في النتيجة الى تقلص وحتى ضمور فرص امكانيات التطور الذاتي والطبيعي الخاصة بثقافة وتراث باقي الشعوب غير العربية، ومنها الشعب الكردي بصورة أكثر دراماتيكية ومفارقة، نظراً للتقسيمات الجيوبوليتكية المتعاقبة منذ العصر الأموي وحتى انهيار السلطنة العثمانية، وتنفيذ اتفاقية سايكس بيكوعلى الأرض، مترافقاً ذلك كله، في آليات تغيراته، باستبداد وتعسف السلطنات والامبراطوريات الكولونيالية على مدى مئات السنين (العباسيون، العثمانيون، الشاهنشاهية الصفوية الإيرانية...الخ) الى جانب امتداداتها المعاصرة المتمثلة في أخطر أشكال النظم الاوتوقراطية الشوفينية الحاكمة معظم أجزاء كردستان المقسمة.

وإذا كان الفولكلور في معناه الاصطلاحي يشتمل على جملة النصوص والحكايات الشفوية والأمثال الشعبية، والسير الذاتية للملوك والأمراء والوجهاء والصعاليك والأبطال الشعبيين الى جانب مختلف أشكال وفنون الرقص والدبكات والأغاني الشعبية وكذلك الأزياء وطقوس الحياة العامة، ومناسبات كرنفالية وأعياد خاصة، الى ما هنالك من أشياء اخرى مشابهة، فإنه في الحالة الكردية، يعتبر الحامل الأساسي لتاريخ وتراث الشعب الكردي، نظراً للتكوين الاستثنائي لهذا التاريخ وهذا التراث، فعلى مر مئات السنين، ورغم ظهور وانتشار وسائل التعليم وشيوع عملية التدوين والكتابة والأرشفة، والتدقيق والحفظ، فإن اللغة الكردية لم تتوفر لها فرص ممارسة ذاتها وحقها في ذلك، أي أنها بقيت محرومة من حقها في تحقيق نموها الطبيعي وتطورها الذاتي بما يلائم حياة شعبها، وذلك نتيجة الحالات السياسية التاريخية التي، رغم تعاقبها واختلافاتها وتنوعاتها في ذلك التعاقب، ظلت ظالمة بشكل مستمر بالنسبة للشعب الكردي، فقد بقيت لغته القومية ممنوعة من التداول الرسمي، وربما نتيجة لذلك، نجد في نصوص الفولكلور الكردي الحكائية منها أو الشعرية، رسم علاقة متلاحمة ومؤلمة بين الواقع والخيال، بين ماهو وضعي ومحدد وبين امكانات وقابليات المغايرة والاختلاف الابداعي، وكثيراً مانرى في مواضع مختلفة من تلك الآثار تلازم الوظيفة الجمالية مع الحضور المعرفي والسوسيولوجي بصورة معلنة أحياناً، وخفية غالباً على هيئة ايحاءات تعبيرية وموجزة، في متون والتواءات النص، في شكل صور شعرية مبتكرة ومتجددة وشفافة، مستمدة من عمق الحزن التراجيدي والقلق الوجودي في أبسط أشكاله عفوية وتلقائية وانعكاساً للوعي الاجتماعي. وتتصف تلك المظاهر التعبيرية بصعوبة ترجمتها الى لغة اخرى، إذ أنها تفقد

الكثير من معانيها التعبيرية ودلالاتها الايحائية بسببٍ من طبيعتها الخاصة التي تعتمد على الايحاء والترميز والايقاع التعبيري للمفردة والجملة على حد سواء.

لا شك أن لكل شعب من شعوب الأرض فولكلوره الخاص ومميزاته الثقافية الخاصة، ضمن اطار التنوع الطبيعي في الوجود، وإذا كان للفولكور الكردي من مميزات خاصة اضافية، فإنها لا تكمن في أفضليات معينة أو في تفوق في الثراء والغنى، بل انها تكمن أساساً في خصوصية العلاقة بين هذا الشعب وفولكلوره، ودور هذا الفولكلور كحارس طبيعي لتراث وتجربة وفلسفة وتاريخ الشعب والكردي، الذي قد نجد السؤال الشكسبيري الشهير في " هاملت "، أن تكون أو لا تكون، يتغير ليصبح " أن يكون أو يكون " ، وكثيراً ما نجد صدى هذه المقولة الأخيرة في عمق الملاحم الشفوية ومختلف النصوص الفولكلورية الكردية، وذلك قبل أن يتجسد في التاريخ المعاصر على شكل خطاب سياسي واضح ومتبلور، في التعبيرات السياسية المباشرة، على مستوى أحزاب وقوى منظمة وذات برامج، نشأت وترعرعت ونمت وتطورت على طريق المطالبة الصريحة بمشروعية ممارسة الشعب الكردي حقه في الاستقلال والحرية، وممارسة حياته الخاصة بعيداً عن القهر والاستعباد وحروب الابادة وعمليات القتل المبرمجة التي تعرض لها طويلاً ، وحتى الآن، بهدف محوالشخصية الكردية وتذويب وانكار الثقافة والهوية القومية والانسانية الخاصة للانسان الكردي، من هنا كان الفولكلور ذاكرة الشعب الكردي وخزانة تاريخه التراجيدي وحارس هويته القومية المميزة.

حكايات وقصص الفولكلور الكردي

يتضمن التراث الشفوي الكردي أنماطاً متعددة من الحكايات والقصص تختلف فيما بينها من حيث الموضوعات والاشكال والأغراض، فمن ناحية الموضوعات نجد توزعها بين معالجة قضايا حياتية اجتماعية تخص الحياة الكردية الداخلية بكل جوانبها على مستوى الفرد أو الأسرة والعائلة وصولاً الى العشيرة، والصراعات بين العشائر، والتغني بقيم الرجولة والشرف والشجاعة، في إطار تلك المعالجة. والتطرق الى شؤون الحياة الكردية في علاقتها بمحيطها الجغرافي والديموغرافي، وكذلك حالة الغزوات والحروب القادمة من وراء حدود الجيران.

أي أننا نجد بصورة واضحة مظاهر حياة المجتمع الكردي في مختلف أطواره ومراحله، وعناصر هذا المجتمع، وقواه الاحتماعية والاقتصادية وطرائق تنظيم ذلك، ونمط العلاقات القائمة بين الأفراد والأسر والقبائل.

الى جانب وقائع الحروب والأحداث التاريخية التي جرت بين الشعب الكردي وجيرانه (الفرس، العرب، الأرمن، الآشوريين، الأتراك....الخ) بحيث يبدووكأن التاريخ الكردي برمته هو تاريخ حروب فجائعية دفاعاً عن الذات وبحثاً عن العيش بأمان، الى جانب أن موطنه كردستان، كان مسرحاً لحروب الآخرين وغزواتهم وكانت نتائج حروب الجيران تطال الشعب الكردي بصورة مستمرة.

وهنا أجد من المفيد الاشارة الى كتاب المؤرخ الاغريقي Xenophon " حملة العشرة آلاف " – Anabasis - أو الحملة على فارس، الذي يروي فيه قصة محاولة الأمير الفارسي " كورش " استلاب العرش من أخيه العاهل الشرعي " أرتحششتا الثاني " في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، وسجل فيه ذلك الحدث التاريخي. ونجد في فصول عودة اليونانيين بعد فشل الحملة، واقعة مفيدة وبارزة تدل على حقيقة قائمة حتى الآن – ولكن بأشكال أخرى – يقول Xenophon : " ....عندئذ عقد القادة اجتماعاً آخراً، بينما انشغل الجيش الباقي بالتجهيزات، فاستحضروا الأسرى واستفسروهم مفصلاً عن الأصقاع التي تحيطهم، فكانت الردود أن .....،.....، والطريق المتجهة شمالاً فوق الجبال، تسلك نحو " الأكراد " ، وأفصحوا أن هؤلاء القوم يقطنون الجبال وأنهم بواسل جداً، وغير

خاضعين للعاهل، والحقيقة أن جيشاً ملكياً، قوامه مئة وعشرون ألفاً، غزا مرة ديارهم، فلم يعد منهم فرد واحد بسبب وعورة الأرض التي وجب عليهم أن يوغلوا فيها، لكنما في أحوال عقد المصالحة مع الوالي المسيطر على السهل، كان ثمة تخالط متبادل بين الأكراد وبينهم، فاستوعب القادة هذه المعلومات، وعزلوا جانباً الذين أعربوا عن إلمامهم بالطريق في كل اتجاه، ولم يلمحوا بأية اشارة نحوالمسلك الذي سيتبعون، غير أنهم فكروا بوجوب غزو" كردستان " عبر الجبال إذ أنهم – استناداً الى الأسرى – سيصلون " أرمينيا " حالما سيجتازون هؤلاء القوم....."[1].

ويذكر Xenophon في موضع آخر من الكتاب المذكور: "....، سبب المستوطنون كثيراً من المضايقات للزمر التي تسلقت مواضع تعلوهم عندما كانوا في طريقهم نحوالأسفل ثانية. كان السكان يجرون سريعاً، فاستطاعوا الابتعاد حتى عندما لم يشرعوا في الركض، إلا إذا كنا فوقهم تماماً. كانت أسلحتهم لا تعدوالأقواس والمقاليع، وكانوا نبالة في غاية الكفاءة.

أما أقواسهم فكانت بين أربعة وخمسة أقدام طولاً، وسهامهم أطول من ثلاثة أقدام. وكانوا أثناء الرمي يخرجون القدم اليسرى، ويدعون نهاية القوس السفلى تستقر عليها وهم يسحبون الوتر. كانت سهامهم تخترق التروس والدروع وعندما حصل اليونانيين على طائفة منها، ركبوها في حلقات معدنية واستعملوها كرماح "[2].

ويذكر أيضاً أن اليونانيون " غالباً ما تحدثوا بشأن المشاق التي انتابتهم إذ كانوا يقاتلون باستمرار خلال جميع الأيام السبعة التي اخترقوا خلالها اقليم الأكراد، وقد قاسوا فيها أكثر من سائر مناوشاتهم مع العاهل، ومع "تيسافرنوس" وعليه، جعلتهم فكرة الخلاص من كل ذلك، يرقدون رقاداً جيداً. "[3]

منذ أكثر من ألفي عام والشعب الكردي معتصم بجباله وموطنه كردستان وإذا كان نصيبه من " الحملة على فارس " أن يقاتل دون سابق انذار جيشاً متمرساً ومنظماً

---

(1) كتاب " حملة العشرة آلاف " الحملة على فارس، الطبعة العربية، ترجمة يعقوب افرام منصور – العراق ١٩٨٥ صفحة ١٦٦-١٦٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، صفحة ١٨٠-١٨١.

(٣) المصدر السابق، صفحة ١٨٢.

قوامه عشرة آلاف مقاتل، مدة سبعة أيام، فإن ذلك ليس إلا غيض من فيض، والقارئ لتاريخ الشرق الحقيقي، يعرف تماماً أن تلك الحملة لم تكن إلا شاهداً بسيطاً على الحروب والغزوات التي تعرض لها الشعب الكردي الذي ظل معتصماً حتى اليوم بجباله، يحميها وتحميه.

إن تاريخاً على هذا القدر من القسوة والنكبات – ناهيك عن الكوارث الطبيعية – لا بد أن يكون حافلاً بفنون تعبيرية تعكس صدى الحياة، وإن جزءاً مهماً من تلك القسوة، ظهر على شكل أقاصيص وحكايات تراجيدية زاخرة بالأنين والألم والحلم، وقد تناقلت هذه الأقاصيص والحكايات شفاهاً من جيل الى جيل، لتشكل ملمحاً هاماً ومميزاً من ملامح التراث الأدبي الشفاهي الكردي.

ذلك الى جانب العديد من القضايا الاجتماعية والصراعات الداخلية والتنافس على الإمارة، وأحوال العلاقات العامة والعادات والتقاليد والأخلاق ومُثل الحياة الأخرى والخصال الفردية.

وإذا كانت الحروب المتتالية والقتال الدامي، تركت ومنذ القديم آثاراً سيكولوجية قاسية في عمق الانسان الكردي، كنتيجة طبيعية للصراع من أجل البقاء حتى بالمعنى البيولوجي، فإن الجانب الآخر من الحياة لم يختفي في الحياة الكردية، وهو جانب المثل العليا وقيم الحق والخير والجمال، ومفاهيم الحب والعشق والحكمة، ويظهر كل ذلك بوضوح وجلاء في موضوعات حكايات وأقاصيص الفولكلور الكردي المتعددة، وخاصة الملاحم الروائية والشعرية ذات النفس التاريخي الاجتماعي، والتي قد نجد من الدارسين أو القراء لا يرون في تسمية تلك الآثار بالملاحم، صحيحاً، ربما لاعتقادهم أن مقاييس الملحمة ومفهومها، لا ينطبقان عليها، لأنها مجرد حكايات أو قصص شفهية، ولكن المرء حينما يحاول استقراء ماهية تلك الحكايات شكلاً ومحتوى ومضموناً، وبالقياس على شروط ولادتها التاريخية، سيجد فيها أنها ملاحم حقاً، ولكنها ملاحم فولكلورية، أي أنها نمط آخر من الملاحم، وهي تشتمل على عناصر أدبية ناضجة في التقنيات التعبيرية، وفي غالب الأحيان يجد المرء عناصر روائية ومسرحية وقصصية وشعرية، تتعايش في الحكاية ذاتها، أي أن هذا النمط من الملاحم يتضمن عدة أصوات أدبية وهو شكل متميز قائم بذاته، وقد نجده في تراث غالبية شعوب الأرض.

ومـن الصـعب قيـاس تلـك الحكايـات بمفـاهيم النقـد الأدبـي الخـاص بـالأدب المكتـوب، ومناهجـه وأدواتـه، وأعتقـد أنـه معلـوم أن النصـوص الأدبيـة الشـفهية تحتـاج الى مفـاهيم نقديـة خاصـة بهـا، وكـذلك الى طـرق دراسـة ومنـاهج بحـث مختلفـة تمامـاً، وذلـك نظـراً لاختلافاتها الجذرية على كل المستويات، عن النصوص المكتوبة.

ولعلـه مـن المفيـد الاشـارة الى عـدد مـن أسمـاء تلـك الحكايـات ذات الـنفس الملحمـي – الفولكلوري، وأختار من هذه الأسماء (Siyabande Slivi O khaje) – (Darwishe) – (Avdi) – (Dalal) – (Jabali) – (Khalil Bag) – (Lawke Madani)، الى جانب عدد آخر من الحكايات، هي الأكثر شـهرة وتـداولاً في الأوسـاط الشـعبية الكرديـة مثـل (Fatah bag) – (Mame Alan) – (Berivana Jndi) – (Aziz tak) – (Mustafa kulke Selmin)، وأسماء أخـرى مـن الصـعب احصـاؤها، وهـي نمـاذج للكثير من الآثار الحكائية الملحميـة الـتي كانـت تـروى في المجـالس الشـعبية وأماسـي السـهر والمناسبات، وفي مضافات الآغاوات والوجهاء، وقد تحولت بكامل محتواها الى أغان مطولـة، تعتبر ملاحم غنائية حقيقية أسـهمت في إثـراء فـن الغنـاء الكـردي والموسـيقا الكرديـة الى درجـة كـبيرة، في ذات الوقـت حافظـت علـى ذاتهـا مـن التلـف والنسـيان والانقـراض، عـبر عملية تحولها تلك الى الأغاني المطولة على لسان المغنين والرواة الشعبيين، فقد كانت هـذه الوسيلة هي الأكثر نجاعة وربما الوحيدة للحفاظ عليها.

إن تأثُر فن الموسيقا الكردية بالملاحم والروايات الشعرية الغنائية أدى الى ظهور ألحان فولكلوريـة بالغـة التـأثير الإيقـاعي والتعـبيري، وقـد امتزجـت ايقاعـات تلـك الألحـان مـع كلمات الحكايات في نسق ابداعي متكامل ساهم في خلق مستمعيه عبر الأزمنة وفي خلق مـا يمكن تسـميته بـالأذن الموسـيقية الكرديـة. وغالبـاً مـا يجـد المـرء أن هـذه الأغـاني المطولـة بألحانها وموسيقاها، ما زالت تـغنّى في الأعـراس والمجـالس الشـعبية والمناسـبات، وإن خـفَّ تداولها بسبب تغيّر ظروف الحياة.

وإلى جانب موسيقا الكلام والمفردة والجملة والنسق اللفظي، وتكامـل الـنص بموسـيقاه الذاتية، فإن المرء يجـد اضـافات جريئـة وخلاقـة الى ايقاعـات العـزف وانسـيابها والتـواءات النغم والصوت الموسيقي، من خلال عدد من الآلات الموسـيقية الوتريـة أو الهوائيـة مثـل (الطنبور، الجمبش، الطبل، الزورنـة، النـاي، القـانون، الكمـان.....الخ)، إذ كـثيراً مـا يـتلازم

الناي بتفرده وشفافيته وحزنه مع رقة الكمان والزخم الصوتي الأوركسترالي للطنبور، والإيقاع الاحتفالي أو الجنائزي لصوت الزورنا.

لقد خلقت تلك الملاحم الغنائية رجالاتها (أناسها) في تكامل ابداعي حقيقي بين المؤدي والمغني والموسيقي والمتلقي، وان المرء يجد في كلماتها مختلف صور الحياة اليومية الكردية ومعانيها، اضافة الى الفلسفة الحياتية للشعب الكردي، بوجهيها التأملي التجريدي، أو التجريبي اليومي المستمد من المعايشة والتعارك مع عناصر الحياة عبر التاريخ.

إن الاستماع الى تلك الآثار الحكائية الروائية- الشعرية أو (قراءتها) قد يحيل المرء الى التساؤل والاستفسار عن (كاتبها) أوراويها (الأول)، وعن زمانها ومكانها الأصليين، وإن كان هذا التساؤل أو الاستفسار يختلف عن ذلك الذي نجده أثناء الحديث عن النصوص القديمة المطبوعة، والتي تنسب الى كاتب أو مجموعة من الكتاب، ولعل ما يتعلق بتقديم الإجابة المنطقية المقنعة في الحالة الفولكلورية الكردية، هو أن هذه الآثار الشفهية التراثية تكونت خلال مرحلة تاريخية طويلة هي مجموعة مراحل حياة الشعب الكردي، وكان يعاد تكوينها وروايتها بشكل مستمر، وربما تعرض الكثير منها للنسيان والضياع، أو تم دمجها مع سواها، خلال تلك العملية.

لقد كان الكاتب هنا، هو الشعب الكردي، وليس فرداً واحداً من أبنائه، فقد خلقه الوعي الاجتماعي المتكون والمتغيّر، أي أن الكاتب أو الراوي هنا، هو جموع غفيرة تتناوب على مسرح الحياة عبر التاريخ، وليس على طريقة الشعراء الهوميريين (الاغريق) الذي كتبوا رؤاهم وانطباعاتهم عن الحروب والمآثر والبطولات والجمال والخير ومفاتن الشخوص الاسطوريين، وإنما بطريقة مغايرة تماماً، فهي تفصيلية أكثر وبسيطة أكثر وواضحة أكثر، ولم تنتهي عملية انجازها عند لحظة تاريخية محددة.

هناك ظاهرة اخرى تتعلق بالآثار الحكائية في الفولكلور الكردي، وهي تعدد الروايات المتعلقة بنص واحد، وتعدد أشكال الاختلاف بين هذه الروايات، في الواقع هناك عدد كبير من الروايات للنص الواحد تختلف فيما بينها من منطقة الى اخرى ومن اقليم الى آخر، وكل رواية منها تحمل بصمات زمانها ومكانها ضمن تعدد اختلافات البيئة الجغرافية الكردية، والتنوع الطبيعي في بنية الديموغرافيا الواحدة تاريخياً وفي سياق التطور.

وكذلك يجد المرء في صدد ذلك تغيراً في مصائر الشخوص واختلافاً في أسماء بعضها أو حتى اشتقاقاً لغوياً وتحويراً في لفظ اسم البطل تبعاً للهجة المحلية السائدة في كل منطقة على حدة، وحتى غياب بعض الشخوص في بعض الروايات عن الاخرى، أو حضور شخوص جديدة، وكذلك أحداث وأمكنة وأزمنة... ولكن مع هذا كله يبقى هناك المحور – الجوهر – الذي يبدوواحداً ومتناسقاً في جميع الروايات على شكل عمود فقري في جسم متماسك، تتقلص أو تتمدد أطرافه تبعاً لتأثيرات الظروف المحيطة به.

وأعتقد أن التناقض الذي يظهر بين الروايات، وكذلك كثرة عددها، يعكسان نوعاً من غنى التجربة الحياتية، وثراء الذاكرة الشعبية وحيويتها، وقوة الرغبة الاجتماعية في التعبير عن ذاتها على شكل تصورات ومواقف واسقاطات، واستجلاب للأحداث الى الذاكرة، وخلق للشخوص والمصائر والأبطال وجعل كل ذلك ماثلة أمام الوعي والخيال.

تلك الاشارات لن تمنعنا من العودة الى بداية الحديث عن التساؤل حول مصدر النصوص، الأصلي، أو المرجعية التاريخية لها، وهنا، لا بد من القول بأن دراسة بنية هذه النصوص ومحتوياتها من شخوص وأحاديث، وفنون الصياغة اللغوية وجماليات التعبير واحداث اجتماعية- تاريخية، تدفع المرء الى حالة من الاقرار بأن هناك استمرارية في اعادة خلق هذه النصوص، أي أنه يصعب القول بأن هذا النص أو ذاك ينتمي الى عصر ما وانتهى الأمر. على العكس من ذلك فإن المرء يستطيع أن يجد آثار عصور مختلفة في النص الواحد، الأمر الذي يدل على أن الحكايات الفولكلورية ذات البعد الملحمي الاجتماعي- التاريخي، في صورتها الدراماتيكية، كانت تعاد بناؤها وصياغتها بشكل مستمر، بشكل تلقائي توافقاً مع قانون الحياة في عملية التطور والارتقاء، وهي هنا (الحكايات المذكورة) تختلف عن الكثيرمن الأقاصيص والحكايات المروية عن صورة الحياة الطبيعية وعلاقتها بالمعتقدات الاجتماعية، والحكايات الخرافية، والقصص التي تتناول حياة الحيوانات، وحتى أحياناً قصص الأطفال، فرغم أن الأنواع المذكورة قد تعرضت هي الاخرى الى التحوير والتطوير وكذلك (الاضافة والنقصان)، إلا أنها لم تبلغ ذلك المستوى من التأثر بعمليات الحياة الاجتماعية وتطوراتها وصراعاتها في مختلف مراحل التاريخ الكردي.

وهذا الاختلاف يشير الى الغنى والتعدد التعبيري في الفولكلور الكردي، إذ أن هناك أنماط متعددة من الأقاصيص والحكايات، تبدو، وكأن كل واحد منها متخصص في حقل محدد من حقول الحياة.

وإذا كانت الحكايات الروائية الطويلة قد اختارت لموضوعاتها حالات عيانية أو وقائع ملموسة أو أحداث جرت بالفعل في ميدان الحياة الاجتماعية، مما أكسبتها خاصية أكثر حيوية وتشويقاً وتأثيراً على نفوس الأجيال اللاحقة، فإن المرء يجد في الجانب الآخر أن قصص الأطفال هي في غاية الثراء والبساطة والعمق والدلالات مما يعكس وعياً تربوياً (أو شكلاً عفوياً من أشكاله) متقدماً وحيّاً في الحياة الكردية، وكذلك حرصاً كبيراً واهتماماً واعياً بالطفل وحياته واعداده التربوي وتنشئته. وهذه النقطة تعكس حالة حضارية تبدووكأنها فطرية، لكنها في الحقيقة تعبير عن ارتقاء في الوعي التجريبي بشروط الحياة، واكتساب لفلسفة تجريبية عملية، أفرزت من تلقاء ذاتها أحكامها المعرفية الخاصة ومنظومتها العقلية المتكاملة، من خلال عملية التداول الاجتماعي لها، كل هذا بعيداً عن أية مناخات ايديولوجية فظة أو ضيقة.

وبصورة أكثر تحديداً على وجه العموم، يمكن تصنيف حكايات وقصص الفولكلور الكردي الى عدة مجموعات مختلفة، وكل مجموعة منها تتميز عن الاخرى في محتواها وموضوعاتها وطريقة بناء نصوصها (الجوانب الفنية الجمالية، عنصر اللغة وكيفية استخدامه، اسلوب القص والسرد والحوار الى جانب عناصر اخرى عديدة) ، وربما أن اللغة الكردية وعلى مدى سنوات طويلة، لم تصبح لغة متداولة كتابياً أو رسمياً في المدارس وما الى هنالك من مؤسسات ودوائر، لذلك لم تتوفر لهذه اللغة فرص تطور الجوانب البلاغية أو الإنشائية، الأمر الذي له انعكاساته الواضحة في كل التراث الشفهي الكردي، هذا لا يعني أن هناك قصوراً لغوياً لدى الشعب الكردي أدى الى أن يكون النتاج الثقافي الكردي متخلفاً أو قاصراً عن مستوى حياة الشعب الكردي، بل على العكس نجد أن هناك توافقاً طبيعياً بين مستوى حياة الشعب الكردي ولغته، وكم نجد أن هذه اللغة، في سياق استعمالاتها، شفافة وشاعرية وموجزة ومعبرة، وهي لغة مطابقة لموضوعاتها، لا تشذ عنها إلا بمقدار ما يخدم استكمال السياق الفني والجوانب الجمالية لهذه الموضوعات.

وبالعودة الى ما سبق يمكن القول أن حكايات وقصص الفولكلور الكردي تندرج بصورة عامة في اطار المجموعات التالية:

١- قصص وحكايات تتوزع بين ما هو ميثولوجي وما هو خرافي، وتضم عنصر الرعب والخوف واستعمال الخيال في هذا المجال، وغالباً ما يتم فيها الاستعانة بالغيلان والكائنات الخرافية، واعطاء أدوار مبالغة فيها لحيوانات اخرى مألوفة في الطبيعة مثل الدب، الأسد،

النمر، الأفعى، النسر .....الخ. وهذا النوع من الحكايات غالباً ما كانت تروى ضمن نطاق الاسرة الواحدة وتحديداً في الليالي، من قبل الجدات أو الأمهات أو الأجداد لأفراد الأسرة الآخرين، وخاصة الأطفال، وتتمعتع بإثارة وتشويق كبير، لكنها في اعتقادي تحتمل عنصراً سلبياً وهو أن رواية قصص الرعب للأطفال يؤثر سلباً على تكوينهم النفسي والتربوي، رغم أنها تتضمن فوائد أخرى لتنمية الخيال واثارة النشاط النفسي، خاصة وأن عدداً منها لا تتضمن الكثير من عنصر الرعب، من جانب آخر يمكن القول أن قصص هذه المجموعة موغلة في القدم، وربما ليس لها تاريخ محدد، وإن كانت في عدد منها متأثرة بالجن ودورهم في الحياة والطبيعة، مستقاة من تأثيرات الدين الاسلامي، وبالتالي يمكن ارجاعها الى تاريخ ما بعد ظهور الاسلام وانتشاره في المناطق الكردية.

٢- القصص والحكايات الساخرة، وهذه تتناول أنماطاً سلبية من الطباع البشرية مثل البخل، الجبن، المكر، الغدر وما شابه ذلك، وتنسج حولها قصصاً متكاملة ذات بناء متميز، ويمكن القول عن هذه المجموعة أنها مجموعة الأدب الشفهي الساخر، وقصص هذه المجموعة متفاوتة فيما بينها من حيث طولها فهناك القصيرة جداً والقصيرة والمتوسطة والطويلة جداً أيضاً.

وكمثال على قصص هذه المجموعة أو رد واحدة منها، وهي معروفة في قرى منطقة عفرين الكردية، شمال سورية وهي بعنوان " kosa " أي أجرد الذقن، وتعني أيضاً الصعلوك – كما هو شائع في اللغة العربية، ويبدوأن هذه الفئة الرثة كانت لها تقاليدها الخاصة في الحياة، وكانت تتعاطى بعض أنواع التجارة الصغيرة والسمسرة فيما بينها. وهنا في الحكاية جميعهم صعاليك ومعروفون بهذه الصفة دون أسمائهم الشخصية.

جُـرْد الذقــون

يقال أنه كان هناك رجلاً أجرداً، وقد أراد ذات يوم أن يذهب الى السوق "البـازار" في بلدة قريبة، فأخذ حماره وسار في الطريق وفي جيبه ثلاث ليرات ذهبية.

في منتصف الطريـق رأى مجموعـة مـن جـرد الـذقون قـادمين في ذات الاتجـاه، فشـعر بالخوف على ليراته الذهبية، وظن أنهم سيسلبونه إياها، وفكر في اخفائها بحيث يتعذر عليهم العثور عليها، وبرق في ذهنه فكرة بأن يخبئها في مؤخرة الحمار، وهكذا فعل.

وعنـدما وصـل إليـه جـرد الـذقون، سـألوه عـن مقصـده والى أيـن يسـير بهـذا الحمـار، فأجابهم بأنه ذاهب الى البازار، ورأوا أنه من المفيد لهم اقتنـاء هـذا الحمـار ليضـعوا عليـه بعضاً مـن حاجيـاتهم، وطلبـوا منـه أن يبيعـه إليهم، لكنـه رفـض ذلـك وقـال أن حمـاره يصعب شراؤه لأنه يتغوط ذهباً، وكادوا أن ينهالوا بالضرب عليه، إذ شعروا بأنـه يسـتخف بهم أو يتهكم عليهم ، لو لا أنه طلب منهم أن ينظروا جيداً ويروا بـأعينهم مـا سـيحدث، فوقفوا جميعاً منتظرين البرهان على ما يقوله.

عندئذ قام الأجرد بضرب ركلة قويـة علـى بطـن الحمـار، فتقاذفـت لـيرة ذهبيـة مـن مؤخرته، وتعجب جرد الذقون من الأمر، ولتأكيد البرهان على الموقف، ضرب ركلـة ثانيـة فتقاذفـت ذهبيـة اخـرى، وأظهـر مزيـداً مـن الحمـاس فضـرب ركلـة ثالثـة حيـث تقاذفت الأخيرة.

دهش جرد الـذقون وطلبـوا منـه بيعـه علـى أن يـدفعوا لـه أي ثمـن يريـده، وعرضـوا عليه اسـتبداله بقطيـع مـن الشـياه كـانوا يقتادونـه، فقبـل بـذلك وأوصـاهم أن حمـاره لا يتناول إلا الحلاوة والكسبح.

وهكذا اقتادوا معهم الحمار فرحين بغنيمتهم، بينما غادر الأجرد مع القطيع الى بيته، وأثناء المسير تشاوروا فيما بينهم وقرروا على أن يحظى زعيمهم بحضانة الحمار في اليوم الأول، ثم يأتي دورهم في ذلك واحداً تلو الآخر.

في اليوم الأول أحضر الزعيم تنكة من الحلاوة ووضعها أمام الحمار، وعاد إليه بعد انقضاء مدة من الوقت حاملاً معه إناءً واسعاً وضعه قرب الحمار – أسفل مؤخرته – ووقف ينتظر الليرات الذهبية التي ستتقاذف، لكن الحمار المسكين من فرط تناوله الحلاوة كان قد أصيب باسهال ومغص في بطنه الذي انتفخ من كثرة ما تجمعت فيه من غازات، سرعان ما أطلق رشقة سائلة من الروث على ثياب الزعيم النظيفة، الذي التفت هنا وهناك دون أن يجد ذهباً، لكنه لم ييأس ووقف منتظراً حتى أفرغ الحمار كل ما يحوي من روث على جسمه وثيابه النظيفة، عندئذ شعر بالخدعة، ولتجنب العار كتم الأمر عن جماعته، الذين تبادلوا الأدوار في ذلك ونال كل واحد منهم نصيبه من الروث السائل.

وفي النهاية اجتمعوا وبانت الحقيقة، وقرروا أن يذهبوا للانتقام من الأجرد ومعاقبته أشد عقوبة على فعلته وخدعته لهم، وهكذا ذهبوا في اليوم التالي نحومكان الأجرد، وبينما كان هذا الأخير يرعى القطيع عند سفوح جبال قريته، سارحاً في أفكاره، لمح من بعيد أن دائنيه مجتمعين قادمين نحوبيته، فهرع مسرعاً الى البيت وأخبر زوجته بالأمر، وقال لها بأنه سيختبىء في العمارة المقابلة للبيت، والتي هي كالمطبخ أو مستودع للحاجيات، وسوف يذبح شاةً، ويحضر اللحم وما عليها إلا أن تحسن استقبال القادمين بأفضل ما يمكن من الحفاوة والتكريم وبعد ذلك، أي بعد أن يكون الضيوف قد جلسوا، وأن تكون قد أخبرتهم أن صاحب البيت سيتأخر بعض الشي في العودة عليها أن تستدعي الكلب الذي يرافق القطيع وأن تتحدث الى الكلب، بعد أن تضع سلة في عنقه، وتقول له:

- اذهب الى السوق واحضر لي مقداراً من اللحم، ألا ترى أن لدينا ضيوفاً؟.

ثم أخبرها بأنه سيزيّق - أي يفتح الباب نصف فتحة - باب العمارة ويلوح للكلب بعظمة، فسرعان ما سيرى الكلب ذلك ويشم رائحة اللحم، فيركض إليه، ويقوم هو بملء السلة باللحم وبعدها ستقوم هي بتناول السلة بعد انقضاء فترة قصيرة، ثم تشكر الكلب على حسن أدائه لوظيفته بصوت عال على مسمع من الضيوف.

وهكذا تم الاتفاق بينه وبين زوجته وشرعا في تنفيذ الخطة، وفعلاً وصل القادمون وسألوا زوجته عنه، فأخبرتهم أنه غير موجود وسيتأخر في العودة لكنها رحبت بهم وأحسنت استقبالهم بكلمات الحفاوة والتكريم ودعتهم الى الاستراحة في المنزل.

بعد فترة وجيزة استأذنتهم بالقيام لإعداد طعام لهم، وبصوت عال، في باحة البيت، استدعت الكلب وطلبت منه الذهاب الى السوق لشراء مقدار من اللحم، ووضعت السلة في عنقه، وقف الكلب المسكين حائراً، لا يدري ماذا يفعل الى أن رأى صاحب البيت يلوح له بعظمة، وشم رائحة اللحم فهرع إليه، وهناك أطعمه صاحب البيت شيئاً من اللحم، ووضع كمية منه في السلة، ثم أخرجه وأغلق الباب، فتناولت زوجته السلة من عنق الكلب، وأثنت عليه بكلمات الشكر والتقدير على حسن طاعته وأدائه لواجباته.

من جهة اخرى، فقد سمع الدائنون الجالسون داخل المنزل كل ما قالته زوجة مدينهم، ورأوا سلة اللحم بأم أعينهم، فتهامسوا بين بعضهم البعض، واتفقوا على أن لا يتحدثوا مع الأجرد عن موضوع الحمار والحيلة التي أنزلها بهم، وأجمعوا على أنه إذا حضر فإنهم سيجعلون من واقع قدومهم مجتمعين زيارة ودية للاطمئنان على أحواله، على أمل أن يحصلوا منه على هذا الكلب العجيب بأي ثمن كان.

وحقاً عندما حضر صاحب البيت، وقفوا جميعاً في استقباله واستلطافه بكلمات الشوق والمودة، ثم جلسوا مجتمعين متحادثين في أمور جانبية الى أن أحضرت زوجته الطعام، ودعاهم الى تناوله، لكنهم أصروا على أنهم لن يتناولوا الطعام إلا إذا وعد بتلبية ما جاؤوا من أجله فوعدهم صاحب البيت بذلك – لأنه كان في داخله يعرف تماماً ماذا يقصدون – .

وبعد تناول الطعام سألهم عن مقصدهم، فقالوا بأنهم سمعوا أن لدية كلباً أميناً، فجاؤوا لشرائه موقنين أنهم لن يعودوا خائبين، هنا راوغ صاحب البيت قليلاً، وأراد أن يناور بأنه لا يمكنه التخلي عنه، فهو يقوم بكثير من الخدمات بدلاً منه، أثناء غيابه عن البيت، وحتى أثناء وجوده لكنهم ألحّوا عليه بأنه قد وعدهم بتلبية ما جاؤوا لأجله، وعرضوا علية مبلغ أربعين ليرة ذهبية، وأظهر صاحب البيت موافقته وكأنها على مضض، إذ أنه لا يستطيع أن يرد طلباً لأصدقاء ودودين، هكذا أظهر لهم حاله.

ثم قرروا الذهاب مصطحبين معهم الكلب، بعد أن دفعوا ثمنه، واتفقوا فيما بينهم على اقتنائه مدة من الوقت لكل منهم، على أن يكون الدور الأول لزعيمهم أو كبيرهم، وهكذا تم الأمر.

عندما حدّث الزعيم زوجته بشأن الكلب استغربت الأمر لكنها أبدت استحسانها في الموضوع، ثم اصطحب الكلب معه الى السوق وملأ سلة بالحاجيات، ووضعها في عنقه وأوصاه بأن يذهب مسرعاً الى السيدة – زوجته – لكي تعد الطعام المقرر أن يدعوإليه بقية أفراد مجموعته، لكن الكلب المسكين لم يفقه من الأمر شيئاً، وهرع في السوق دون أن يدري الى أن يذهب، كل ما يريده هو أن يخرج من الزحمة ويمضي في سبيله، بينما كان الزعيم قد غادر المكان في اتجاه اللقاء بزملائه.

وعندما حان الموعد المحدد للاجتماع على تناول الطعام في بيت الزعيم بمناسبة اليوم الأول لعمل الكلب في اجتلاب الحاجيات الى البيت، فـُوجئوا أن السيدة منزعجة كثيراً – فهي لا شك قد قضت وقتاً طويلاً في انتظار ما سيرسله زوجها من حاجيات لإعداد الطعام – وبدأت تذمهم على سذاجتهم في الاعتقاد أن الكلب سيقوم بخدمة هي من شأن الناس.

واستدرك الجميع الحيلة التي انطلت عليهم، والخطأ الذي وقعوا فيه، وعقدوا العزم على الانتقام من الأجرد، وقرروا الذهاب إليه في الصباح التالي.

وجاء الصباح، وذهبوا جميعاً لملاقاته، متوعدين فيما بينهم بالانتقام منه شر انتقام، وعندما اقتربوا من البيت رآهم الأجرد، وأسرع الى زوجته وأوصاها بأن تسيء استقبالهم بأسوء ما يمكن من التذمر وكلمات الاستهجان لزوجها وأصحابه، ثم طلب منها بأن يضع في عنقها مصراناً مليئاً بالدم، - وسوف لن يظهر تحت شالها – وأنه سيأتي بعد ذلك ويراها متجهمة ولم تهتم باستقبال الضيوف ولم تعد لهم الفرش اللائق، وأنه سيتشاجر معها بأقسى كلمات التوبيخ والتأنيب والغضب ويطرحها أرضاً – على أنه يقوم بضربها – ثم سيخرج سكينه ويقطع المصران المليء بالدم، وسيسيل الدم بينما هي ستبقى جامدة لا تتحرك، عندئذ سيلومه القادمون ويؤنبونه على فعلته الشنيعة، عندها سيُخرج صافرة من جيبه، ويطلق منها ثلاث صفارات، فتنهض هي، وتعود الحياة إليها من جديد، وكأن شيئاً لم يحدث، وبذا سيطمعون في اقتناء الصافرة، وسيتخلص من شرهم ويكسب مالاً اضافياً.

وشرعا في اعداد الخطة، فذبح شاةً واستأصل مصرانها وملأه بالدم وربطه باحكام حول عنق زوجته واختبأ في مكان خارج المنزل.

وجاء جرد الذقون وهم في غاية الغضب، يريدون الامساك به والانتقام منه، لكنهم فوجئوا أنه غير موجود في البيت وأن زوجته التي أحسنت استقبالهم المرة الماضية، قد أشاحت عنهم وجهها، وذمتهم كما ذمت زوجها، مما اضطروا أن يفترشوا كل منهم حجرة في باحة البيت، في انتظار الأجرد. وبعد مدة وجيزة، حضر الأجرد ورآهم على تلك الحال، فهرع الى زوجته شاتماً وموبخاً وغاضباً على سلوكها الشائن مع أصدقائه، وسرعان ما طرحها أرضاً، وأخرج سكينه وقطع المصران من حول عنقها، فسال الدم، وبقيت هي جامدة في أرضها لا تتحرك وكأنها ميتة فعلاً، فذهل جرد الذقون من هول المصيبة، خاصة وأنه أقدم على ذلك لأنها لم تحسن استقبالهم ولم تحتفي بهم كما ينبغي، ووقفوا يلومونه ويؤنبونه على ارتكابه هذه الفظاعة، فأبدى تأثراً بموقفهم وقال أنه من أجل خاطرهم سيحييها من جديد، وطلب منهم أن يجلس كل في مكانه، وأخرج صافرته، وصفر في أذنها ثلاث صفارات، فنهضت وكأن شيئاً لم يكن.

عندئذ تهامسوا فيما بينهم، واتفقوا على أن يتجنبوا الحديث عن سيرة الكلب وكيف أن الأمر كان خدعة مهينة، وذلك على أمل أن يبتاعوا منه هذه الصافرة السحرية التي تحيي الموتى، خاصة وأنهم كثيراً ما يتشاجرون مع زوجاتهم، وربما في ساعة غضب قد يقدمون على قتلهن، عندئذ لن ينفع الندم بشي، وهذه الصافرة ستنقذهم من المصيبة، لذلك بدأوا بفتح الأحاديث الودية وكلمات المجاملة مع صاحبهم، ولما شعروا أن الجوملائم، توجهوا إليه مع بالغ الرجاء بالطلب لبيعهم الصافرة، وليستزيد من رغبتهم فيها، ماطل كثيراً وتحجج بأنه يحتاجها من حين لآخر، وأن شجاراته ومشاداته مع زوجته لا تنتهي وأنها لم تكن المرة الاولى التي يقدم فيها على ذبحها، ثم يندم بعد ذلك ويقوم باسترجاعها الى الحياة، لكنهم وعدوه بأنه عندما يحتاجها فإنهم سيسرعون في جلبها إليه، وعرضوا عليه مبلغ مائة ليرة ذهبية مع الرجاء بأن لا يخيبهم ويرد طلبهم، وبعد كثير من الالحاح وافق الأجرد على بيعها لهم، وعادوا فرحين بالصافرة الى بيوتهم.

وفي الطريق اتفقوا على أن يقتنيها زعيمهم في اليوم الأول، ثم يتبادلوا اقتناءها بالترتيب، وهكذا استلم الزعيم الصافرة في أول يوم، ولإكمال فرحته بها، أراد أن يجربها فافتعل شجاراً مع زوجته وأخرج سكينه وذبحها وسط توسلاتها وصراخها واستغرابها، بعد ذلك أخرج الصافرة وصفر في أذنها ثلاث صفرات، ولأنها لم تنهض، كرر الصفرات الثلاث، وهكذا ظل يصفر بالصافرة حتى اليوم التالي دون جدوى.

وتجنباً للفضيحة والخزي والعار فقد كتم الأمر عن أصحابه، وسلم الصافرة الى الذي يليه في المقام، وحدث له ماحدث للزعيم، وهكذا تكرر الأمر مع جميع أفراد المجموعة.

وفي آخر يوم من ذلك لم يجدوا مفراً من اعلان الحقيقة والحديث بصراحة عن انطلاء هذه الحيلة الشنيعة عليهم، لذلك قرروا هذه المرة التخلص من الأجرد والقضاء عليه مهما أبرز من أمور سحرية أو عجيبة، وأقسموا أغلظ الأيمان وأشدها على أنه سوف لن يفلت منهم هذه المرة، خاصة وأنه رمّلهم جميعاً ويتم أولادهم.

ساروا إليه والغضب يغلي في عروقهم وعثروا عليه في السفوح المجاورة لبيته يرعى أغنامه، فأطبقوا عليه واقتادوه هو وأغنامه الى نهر قريب من المكان بعض الشيء، وهناك ربطوه ووضعوه في كيس وربطوا فتحة الكيس بإحكام وتركوه في الأكمة القريبة من النهر، وابتعدوا عنه قليلاً واقتعدوا الأرض ووضعوا زادهم لتناول شيء من الطعام لأنهم شعروا بالجوع بعد المسير الطويل وفورة الغضب، على أن يحملوه لرميه في النهر بعد تناول الطعام.

أثناء ذلك حدث أن اقترب راعٍ مع أغنامه من المكان الذي وضعوا فيه الأجرد والكيس، وأحس الأجرد بذلك وأخذ يتقلب مع الكيس ويقول بصوت مسموع:

- مهما فعلتم لن أتزوج ابنة عمي.

وبدأ بترديد ذلك مرات عدة، الى أن سمع الراعي صوته وسار نحوه، وفُوجئ أن كيساً يتقلب وصاحب الصوت ما زال يردد ذلك وهو في داخله، فوقف قربه وسأله ما به وما الذي يقوله، فأجابه الأجرد بأن أقرباءه قرروا أن يرموه في النهر لأنه لا يريد أن يتزوج ابنة عمه، وتركوه هنا قليلاً لأن يفكر عسى أن يغير رأيه فينقذون حياته وإلا فإنهم سيرمونه في النهر مربوطاً داخل الكيس.

دهش الراعي من هذا الأمر الغريب ويبدوأن الحرمان من المرأة قد نال منه الكثير، لذلك اقترح عليه إذا أراد بأن يتبادلا الأدوار، فيتخلص هو من الغرق وابنة عمه دفعة واحدة، وسوف يحظى الراعي بامرأة بعد يأس شديد من الحصول عليها، فقبل الأجرد ذلك، وشرع الراعي بفتح الكيس وفك قيده، وخلع ثيابه وبادلها بثياب الأجرد، وبعد أن ارتدى ثياب الراعي، وضعه في الكيس وأحكم ربطه، ووقف مع القطيع بعيداً عنه.

عندما انتهى جرد الذقون من تناول طعامهم، عادوا الى مكان الكيس وحملوه الى النهر، عندئذ بدأ الراعي يصرخ:

- سأتزوج ابنة عمي، سأتزوجها، لقد غيرت رأيي ، أريد أن أتزوجها.

تعجب جرد الذقون من أمر صاحبهم وصرخوا به:

- ماذا تقول أيها الوغد

أجابهم بأنه سيتزوج ابنة عمه. اقترب منهم الأجرد وهو متنكر في زي الراعي وسألهم عن الأمر، فأجابوه أنه وغد احتال عليهم وتسبب بمصائب عديدة لهم وأنهم يريدون أن يرمونه في الماء ليتخلصوا منه، وهكذا سار بمحازاتهم الى أن وصلوا النهر، وألقوا الكيس بما فيه في الماء بينما الصوت ما يزال يتردد:

- سأتزوج ابنة عمي، سأتزوجها، صدقوني لن أرفضها مرة اخرى.

وبدأ الكيس يعلو ويهبط وسط حركة النهر ووسط صوت مستغيث ولاهث مبهم، فتساءلوا فيما بين بعضهم عما يقول، فرد الأجرد المتنكر في زي الراعي بأنه يقول أنه قد وجد مغاراً تحت الماء مليئاً بالشياه وهو لا يستطيع انقاذها وحده.

وفي الحال قذف عدد منهم بأنفسهم في النهر طمعاً في اجتلاب عدد من الشياه، ولما كانوا لا يعرفون السباحة فقد بدأت حناجرهم تغرغر وأصواتها تعلو، فتساءل الباقون على اليابسة عما يقولون، فأجاب الأجرد:

- إنهم يقولون أن العدد كبير وهم لا يستطيعون انقاذ مايريدون.

فأسرع البقية في القفز الى النهر الذي ابتلعهم الواحد تلوالآخر في لحظة واحدة، وعاد الأجرد الى بيته بعد أن ضم قطيع الراعي المسكين الى قطيعه وتخلص من شر جرد الذقون.

هذه الحكاية التي لن أدخل في تفسير دلالاتها، لأن هذا موضوع آخر، بل أريد من خلالها الإشارة الى نمط حكائي معروف في التراث الشفهي الكردي، ولا بد من القول أن هناك بعض الدلالات تتكرر في الكثير من أقاصيص الفولكلور الكردي، مثل دور الراعي الغائب عن مسرح الحياة الاجتماعية والمتوحد مع قطيعه في الطبيعة، بالطبع هناك أدوار اخرى للرعاة في الحكايات الشفهية الكردية، لكن الدور الوارد في هذه القصة نجد شبيهاً له في حكايات أخرى.

وهناك أيضاً ظاهرة ارتباط الحب بالموت، التي نلمسها في رغبة جرد الذقون في قتل زوجاتهم ومن ثم احيائهن بواسطة الصافرة بعد أن دفعوا ثمنها غالياً، وأعفوا الأجرد المذنب من العقوبة.

إن ارتباط الحب بالموت طاغٍ الى درجة أنها تشمل الكثير والكثير من حكايات وملاحم وأقاصيص التراث الكردي، ولا شك بأن لهذا علاقة وطيدة بطبيعة الحياة الكردية تاريخياً، بالإضافة الى كونها كحقيقة حياتية عامة احدى كبريات قوانين الطبيعة.

هناك جوانب بالغة القسوة في الحكاية، لكنه أيضاً هناك ما هو ظريف وساخر، ويمتزج هذا النوع من الحكايات مع ما يمكن تسميته بقصص الأطفال أو الفتيان في التراث الكردي – والتي هي متنوعة جداً – وتروى هذه الحكاية للأطفال أو الفتيان في حضور الكبار أيضاً.

وهناك بعض التفاصيل فيها تختلف من رواية الى اخرى ومن راو الى آخر مثل المبالغ النقدية المقدرة بالليرات الذهبية، أو الأزمنة المذكورة وبعض الأمكنة ومواصفات السوق والبازار.

وهناك أيضاً ظاهرة العدد " ٣ " التي تتكرر في الحكاية، إذا أن الأجرد كان يملك " ثلاث " ليرات ذهبية، وركل الحمار " ثلاث " ركلات، ثم أنه استعمل الصافرة " ثلاث " مرات، وكذلك فعل الآخرون.

كما أنه خدع جرد الذقون ثلاث مرات في مبادلاته التجارية أثناء بيع الحمار والكلب والصافرة، مع ملاحظة أن ظاهرة بيع الحمير والكلاب غير مألوفة في المجتمع الكردي، فهذه الحيوانات قلما تباع وتشترى، وغالباً ما يتم اعطاؤها لمن يطلبها كهدية أو هبة.

إن واقع ورود ذكر الأرقام في التراث الشفهي الكردي، شائع جداً وخاصة الارقام (٣، ٧، ١٤، ٤٠) ويندر أن نجد حكاية دون ذكر للأرقام المشار إليها.

٣- مجموعة حكايات وقصص الأطفال، وهي في الكثير منها، تحتوي على عنصر الفكاهة والنكتة والتسلية، وايحاءات معبرة من الحكمة المبسطة، وارشادات تربوية وأخلاقية مبسطة، وكمثال على حكايات هذه المجموعة، أروي واحدة منها، وهي شائعة ومألوفة في قرى منطقة عفرين المذكورة سابقاً، ولست أدري ان كانت متداولة أو معروفة في باقي المناطق الكردية أو في أجزاء كردستان الاخرى وهي بعنوان الثعلب والعجوز.

الثعلب والعجوز

كان ياما كان، يروى أن عجوزاً ذهبت الى بيت ابنتها لأداء واجب الزيارة[1]، وقد حملت معها جرتين، واحدة مليئة بالسمن، والاخرى بالعسل، وفي طريقها صادفت ثعلباً، سألها بعد أن حيّاها:

- الى أين تذهبين أيتها الأم العجوز؟

فأجابته بأنها ذاهبة الى بيت ابنتها لأداء واجب الزيارة، ثم سألها:

- ماذا تأخذين معك من هدية؟

فأجابته:

- إنها جرة سمن وجرة عسل

سُرّ الثعلب عند سماعه جواب العجوز وسار بمحاذاتها مبدياً كل الرفق واللطف، ثم قال لها:

- إن هذا الحمل ثقيل عليك، دعيني أحمل عنك واحدة من الجرار، فالطريق طويل وأنت عجوز سوف تتعبين كثيراً.

---

(١) المقصود هوالزيارة الأولى التي تقوم بها الأم لبيت ابنتها بعد الزاوج، وهي عادة قائمة حتى الآن في المجتمع الكردي، وهذه الزيارة مصحوبة دوماً ببعض الهدايا.

شكرته العجوز على مبادرته ولطفه ثم ناولته جرة السمن، حملها الثعلب وسار الى جانب العجوز فترة من الزمن، ثم أسرع خطاه وسبقها بعض المسافة، ثم التف قرب حرش واختبئ وراءه.

وضع جرة السمن أمامه وبدأ يأكل منه حتى آخر لحسة، بعد ذلك وضع الجرة الفارغة تحت مؤخرته وتغوط فيها وأغلق فم الجرة مثلما كانت في الأول وعاد الى الطريق، ورأته العجوز، ولما أظهرت قلقها على غيابه، أجابها أنه تعب قليلاً وأراد أن يستريح وها هو قد لحق بها.

بعد مضي فترة من الزمن قال للعجوز:

- يا أماه، إن جرة السمن خفيفة الوزن والعسل ثقيل وأراك قد تعبت، هات نتبادل الحمل، لأخفف عنك قليلاً.

وبتقدير بالغ شكرته العجوز وناولته جرة العسل وأخذت منه جرة السمن، وهكذا كما فعل في أول مرة، عاد وأسرع خطاه حتى أن غاب عن أنظار العجوز، اختبئ خلف شجرة، ووضع جرة العسل أمامه وبدأ يأكل منه حتى النهاية، وكذلك وضعها تحت مؤخرته وتغوط فيها وأغلق فمها كما كان في السابق وعاد الى الطريق.

بعد ذلك بفترة وجيزة وبعد أن صارا على مقربة من القرية التي تذهب العجوز إليها، طلب من العجوز أن تعذره لأنه لا يستطيع أن يكمل معها المشوار الى دار ابنتها، خوفاً من كلاب القرية، واستأذنها بالافتراق بعد أن ناولها الجرة.

شكرته العجوز على حسن فعلته ودعت له بالعافية والسعادة والتيسير وعاد الثعلب الى حيثما كان.

في المقابل، وصلت العجوز الى دار ابنتها، التي استقبلتها بشوق وحفاوة، وتناولت منها الهدية ووضعتها في احدى زوايا البيت، ثم جلستا وتحدثتا عن أمور بعضهما البعض، الى أن حضر الزوج الذي سرّ لقدوم حماته، وفرح كثيراً عندما سمع من زوجته أمر الهدية، إنها حقاً هدية ثمينة، وطلب من زوجته أن تسكب له قليلاً من العسل، فهو لم يذق العسل منذ فترة طويلة.

نهضت وتناولت صحناً وملعقة وهرعت الى الجرة بهمة واعتداد – فأمها قد أحضرت لها هدية كبيرة – وفتحتها وغرفت بالملعقة شيئاً مما في داخلها ووضعته في الصحن،

لكنها فوجئت أنه لا يشبه العسل، وتمعنت فيه وصدمت وكأن صاعقة أنزلت على رأسها، فقد كان غائطاً، فتحت الجرة الثانية وكانت النتيجة نفسها، اصفرّ وجهها غضباً وخجلاً، سألوها عن الأمر فأخبرتهم بالحقيقة.

هنا تداركت العجوز الامر وقالت – وهي تقصد الثعلب - :

- إن ذلك الماكر هو الذي فعلها

أخبرتهم بما جرى لها في الطريق وكيف التقت بالثعلب وظنت أنه شهم وعطوف.

بعد ذلك بعدة أيام عادت العجوز الى بيتها، وقد قررت بينها وبين نفسها أن لا تدع الثعلب يفلت من عقابها وهي تكاد تنفجر غيظاً.

فكرت في أنجع عقوبة ممكنة لكي تشفي غليلها من الثعلب، واستدركت أنه ربما يأتي الى جوار القرية، ويمكن له أن يجلس على صخرة بارزة هناك.

حملت بعضاً من الاسفلت وذهبت الى الصخرة، وقامت بطلسها بالاسفلت وعادت الى البيت.

في غضون عدة أيام جاء الثعلب وجلس على الصخرة يتأمل القرية شامتاً من العجوز ومزهواً بحيلته الناجحة، وهو يبتسم في عبّه، لكنه عندما أراد أن ينهض ويمشي لم يستطع ذلك وعرف أنه وقع في الفخ.

تحرك يميناً وشمالاً ولكن دون جدوى، وهكذا بعد جهد عسير استطاع أن يخلّص نفسه من الورطة ولكن بعد أن قطع ذيله الذي بقي ملتصقاً بالاسفلت على الصخرة.

وكما توقعت العجوز، فإن الثعلب قد مضى تاركاً ذيله وراءه، جاءت الى الصخرة وفرحت بما حدث للثعلب، ثم انتزعت الذيل من الصخرة وأخذته معها الى البيت، وهناك قامت بتزيينه بما أمكنها من أصداف وشراريب وزينة، بحيث صار جميلاً جداً، ثم حملته وعلقته فوق باب بيتها من الخارج، بحيث يكون ظاهراً للعيان.

جاء العيد واجتمع الأولاد فرحين وهم يلعبون هنا وهناك، ورأوا ذيل الثعلب المزين معلقاً فوق باب بيت العجوز، واندهشوا لروعته، بينما كان الثعلب من البعيد يرى ما يجري في بيت العجوز، ثم ناداها راجياً متوسلاً أن تعيد له ذيله، فهو لا يستطيع أن يأتي إليها ليعتذر منها ويقبّل يدها، خوفاً من كلاب القرية، لكن العجوز ردت عليه قائلة:

- إن هذا هو جزاء من يخدع الآخرين ويسيء إليهم.

هكذا عاد الثعلب خائباً حزيناً ونادماً على فعلته.

في روايات أخرى لهذه الحكاية هناك اضافات كثيرة حول ما يجري بين الثعلب والعجوز، تشترط فيها الأخيرة شروطاً معينة وتعجيزية لكي تعيد له ذيله.

وهذا النمط من الحكايات ترويه غالباً الجدات لأحفادهن، مما يشير الى دور تربوي ما للجدة في تنشئة الطفل في المجتمع الكردي.

٤ – مجموعة أقاصيص وحكايات الحكمة والأقوال المأثورة، وأورد هنا نموذجين منها، الأول هو الحكاية التالية التي تدور حول الحكمة القائلة بأن

" ابنة رجل فقير أصبحت كنّة أحد الباشاوات "، وتقول الحكاية:

ابنة رجل فقير أصبحت كنّة أحد الباشاوات

كان ياما كان، يروى أنه كان هناك عاهلاً، قد خرج ذات يوم لتفقُّد أحوال رعيته، برفقة حاشية من وزرائه ورجال بلاطه، وفي احدى المناطق الفقيرة رأى فتاة رائعة الحسن والجمال، همس لأحد وزرائه بأن يتذكر هذه المنطقة ودار أهل الفتاة، فقد أعجب بهذه البنت الفاتنة وأرادها لنفسه، وحينما عاد الى القصر بعث بالوزير الى والد الفتاة يطلب يدها للعاهل.

جاء الوزير الى والد الفتاة وأخبره بالموضوع، فرحّب به والد الفتاة وأبدى ابتهاجه بالموضوع، وطلب أن يمهله ثلاثة أيام لكي يأخذ رأي الفتاة ويقنعها إن كانت مترددة.

عاد الوزير الى القصر بعد زيارته الناجحة، وأبلغ العاهل بنتيجة ما جرى معه، فسرّ العاهل واعتبر أن ذلك أمراً طبيعياً وأنها عادة معروفة ومتبعة.

في مساء اليوم ذاته نادى والد الفتاة على ابنته وطلب منها أن تجهز أشياءها حتى حلول الليل وأخبرها أن عليهم أن يغادروا هذه البلاد ويرحلوا منها، حيث لم يبق لهم رزق فيها، فتعجبت الفتاة من كلام والدها ومن قراره المفاجئ فسألته عن الأمر وبعد الحاحها صارحها قائلاً:

- يا ابتني، اليوم أنزلت علينا مصيبة لا نستطيع الخلاص من شرها إلا بالهروب سراً من هذه البلاد، فقد أرسل العاهل وزيره اليوم طالباً يدك، وأنت ما زلت في العشرين من العمر بينما هو عجوز في الستين وأنا لا يطاوعني قلبي على قبول ذلك، كما أنني لا أستطيع أن أرفض، فتعلمين أن أوامر العاهل لا يمكن لأحد أن يرفضها، يا بنتي، لو أنه

طلب ذلك لابنه أو لأحد من وزرائه لكان الأمر عادياً ومقبولاً أما أن يطلب يدك لنفسه فهذا ما لا أستطيع القبول به، لذا لم يبق أمامنا إلا الهرب للخلاص من شره.

فكرت الفتاة بعضاً من الوقت وقالت لوالدها:

- لا تخف يا أبي ودعنا نبقى هنا ولن يتم الأمر إلا كما تريده أنت، ولكن حين يعود الوزير اطلب منه أن يسمح لي بالحديث وقول شروطي، واطمئن فلن يتحقق الأمر إلا كما تريده أنت.

في الموعد المتفق عليه جاء الوزير ورحب به والد الفتاة وجلسا يتحدثان عن الموضوع فاستئذنه الرجل بأن يسمح للفتاة بالجلوس معهما، فربما تريد شيئاً خاصاً عن مهرها.

سرّ الوزير وقال:

- فلتتفضل وتطلب كما تشاء.

خاصة وأن العاهل قد أذن له بالموافقة على أي مقدار من المال والأشياء مهراً لها.

جاءت الفتاة وجلست، فسألها الوزير عما تريده من ذهب وحلي فأجابت:

- أريد مهري عشرين خروفاً وثلاثين ذئباً وأربعين أسداً وخمسين ثعلباً وستين جملاً وسبعين فروةً وثمانين مهرّجاً.

تعجب الوزير من هذا الطلب المتواضع والغريب، فهو كان قد وضع في حسبانه كميات كبيرة من الذهب والمال وقال:

- حسناً يابنتي، لقد ظننت أنك ستطلبين أكثرمن هذا بكثير، وها أنت تطلبين أشياء عادية جداً، حسناً ستحصلين على كل ذلك خلال اسبوع.

عاد مسروراً الى العاهل، الذي كان في انتظاره وروى له ما جرى وما طلبته الفتاة، قال العاهل:

- حسناً.

ودعى وزراءه وأعيانه للاجتماع في القصر، وتم الاجتماع، حيث روى العاهل المشكلة وطلب حلها في أقرب وقت ممكن.

تبادر الوزراء والأعيان واحداً تلوالآخر بعرض خدماته، فهناك من تبرع باحضار الخراف، وآخر بالعثور على الذئاب واحضارها، وثالث بأسر الأسود، وآخر الثعالب، وهكذا

الى أن وجدوا أن المشكلة قد حلت، وأن الأمر بسيط للغاية. فلا شيء يصعب أمامهم حين يتعلق الأمر بتقديم أفضل الخدمات للعاهل بما يسر خاطره ويُدخل البهجة الى قلبه.

وقف العاهل وسط الاجتماع وخاطب حاشيته قائلاً:

- عار أن تكونوا وزراءً وأعياناً، حقاً إنه لعار عليكم، إذا كنتم مجتمعين لا تفهمون من حياة الدنيا بقدر ما تفهمه فتاة في العشرين من العمر، أتعرفون ماذا كانت تقصد؟. إنها تقول إن الانسان في العشرين من العمر كالخروف، وهو في الثلاثين كالذئب، وفي الأربعين كالأسد وفي الخمسين كالثعلب وفي الستين كالجمل وفي السبعين يصبح كالفراء وفي الثمانين – أي في النهاية – يصبح كالمهرج، موضع سخرية وتهكم وتسلية الآخرين، وإنني الآن في الستين وقبل أن يفوتني الوقت وأصبح مهرجاً، موضع سخريتكم وتهكمكم وتفلت من يدي مقاليد الحكم، عليّ أن أعد العدة لإبني كي يصبح خلفاً لي، ويجب عليّ أن أوفّر له أسباب وامكانية ذلك، إن فتاة كتلك لائقة بإبني وضرورية له، لذا هيا بنا نطلب يدها لولدي.

وهكذا أصبحت ابنة رجل فقير كنّةً لأحد الباشاوات.

أما النموذج الثاني المشار إليه آنفاً فهو الحكاية التي تدور حول القول المأثور الذي ينطوي على قسوة كبيرة، وهو أنه " ما من كائن أو شيء في الوجود أكثر سوءاً من ابن آدم ". وتقول الحكاية:

ما من كائن أو شيء في الوجود أكثر سوءاً من ابن آدم

كان ياما كان، كان هناك رجلاً يعيش في قرية، وقد ذهب ذات يوم الى البازار الذي كان في بلدة قريبة من القرية، كان ذلك في يوم بارد، وفي الطريق عثر على حيّة ممددة دون حراك من تأثير البرد وكأنها ميّتة.

شعر الرجل بعطف وشفقة عليها وحملها ووضعها تحت سترته ومضى. بعد أن ابتاع حاجياته من البازار عاد الى بيته، وجلس قرب الموقد، وأخرج الحية من تحت سترته ووضعها قرب الموقد لتتدفأ.

في المساء ذهب الى فراشه ونام، واستيقظ في الصباح على قوة رص الحية حول عنقه واصيب بالذهول مما حدث له.

قالت له الحية:

- لا تتحرك، إنني الآن أريد أن أقتلك، لأنه لا شيء أسوء من ابن آدم.

تعجب الرجل من كلام الحية وذكرها كيف أنقذها من الموت وانتشلها من البرد وأنقذ حياتها، لكن الحية بقيت كما هي حول عنقه وأصرت على أن تقتله.

ولما لم يجد الرجل مناصاً للتخلص من شر الحية، ترجّاها بأن يعودا الى السير في نفس الطريق وأن يأخذا برأي أي ثلاثة يصادفونهما، فإذا أجمعوا هؤلاء الثلاثة على الموافقة على قتله فليكن، وذلك بعد أن يعلموا بالخدمة التي أسداها الرجل للحية.

وشعوراً من الحية برد الجميل وعدم انكاره قبلت بشرط الرجل، وهكذا نهض الرجل والحية حول عنقه، وسار في ذات الطريق التي صادف فيها الحية.

بعد مسافة قصيرة التقوا بكلب أدرد نحيف، يعبر الطريق متهالكاً خائفاً، يبدووكأنه عليل على وشك الموت، استوقفاه، بعد أن نادا عليه، سأله الرجل عن رأيه فيما يجري له،

فالحية حول عنقه وهي تريد قتله بعد كل الجميل الذي أسداه إليها، فهو الذي أنقذها من الموت وحملها الى بيته، بينما هي الآن تريد قتله.

أجاب الكلب الشريد قائلاً للحية:

- اقتليه، فلا شيء أسوء من ابن آدم، لا تتركيه، اقتليه.

تعجب الرجل من رأي الكلب، وسأله عن السبب في ذلك، رد الكلب قائلاً:

- انظر الى حالتي، كيف أنني على حافة الموت ولا أجد كسرة خبز أسكت بها جوعي، ولا مكاناً أذهب إليه لأتدفأ من هذا البرد اللعين، انظر كيف أصبحت منبوذاً شريداً، بعد أن قضيت كل شبابي في خدمة رجل من بني البشر، حارساً أميناً على بيته، أسهر الليالي وأجري هنا وهناك لحمايته من شر أعدائه وأذاهم، وبعد أن هرمت وتقدمت في السن ولم تعد طاقتي تطاوعني على أداء كل ذلك كما كانت في أيام الشباب، قام بطردي من البيت وألقائي في البراري شريداً جائعاً منبوذاً، وكأنني لم أفعل من أجله شيئاً على الاطلاق، أترى كيف أن الانسان ناكر للجميل، وأن لا شيء أسوء منه أبداً.

ثم التفت الى الحية وطلب منها أن تقتله ومضى في سبيله.

سار الرجل والحية حول عنقه في الطريق، وبعد مسافة من المسير ظهر لهم جمل أجرب ومسن ونحيل الى درجة يمكن أن تحصي ضلوعه في صدره وقد بدا عليه الهزال والتعب، استوقفاه، وطلب منه الرجل ابداء رأيه في مشكلته، وهو قد يساهم في انقاذ حياته إذا عارض الحية بقتله، خاصة وأنه قدَم كل العرفان والجميل الى الحية وأنقذ حياتها، والآن تريد أن تقتله بعد كل ذلك.

وقف الجمل حزيناً يائساً ومليئاً بالغيظ، وطلب من الحية أن تقتله قائلاً:

- اقتليه، فلا شيء أسوء من ابن آدم

اندهش الرجل من موقف الجمل وسأله عن السبب في ذلك، فرد الجمل بحسرة وألم:

- آه، إنك ترى حالتي الآن، كيف أنني جائع وعليل على حافة الموت، أتعذب هنا وهناك دون جدوى لقد قضيت كل سنوات شبابي في خدمة صاحبي، أحمل ما لا يستطيع أحد حمله، أقاوم البرد والحر، والجوع والعطش في خدمته، وكم حملته على ظهري وجعلته يفوز في سباقات الجري وبعد أن تقدمت في السن وهرمت ولم يعد في امكاني تقديم ما يريده من خدمات، طردني من البيت وألقاني في البراري أقاس مصيري الذي حدده لي، فهل أسوء من بني آدم؟

وطلب من الحية أن تقتله.

بعدها طلبت الحية من الرجل الوقوف، فلا بد من أن تقتله، لكن الرجل ذكّرها بالمعروف الذي قدمه إليها وانقاذ حياتها، وقال بأنه ما زال هناك شخص ثالث – حسب الاتفاق بينهما – لكي يبدي برأيه، فوافقت الحية.

سار في الطريق الى أن صادفا قرب هضبة جرداء ثعلباً لاهثاً يجري على عجل، نادى الرجل على الثعلب وطلب منه الوقوف وابداء رأيه في مشكلته. وقف الثعلب، وأخبره كل من الرجل والحية بالحكاية، فكر الثعلب قليلاً وقال:

- حتى تكون المحاكمة عادلة، وأن أبدي موقفي يجب أن تكونا في حالة طبيعية.

وطلب من الحية أن تنزل الى الأرض وبعدها سيسمع رأيهما، وينظر في الموضوع، ويعلن موقفه، فهكذا تقتضي العدالة.

وافقت الحية على شرط الثعلب، ونزلت الى الأرض متمددة بضع خطوات بعيداً عن الرجل.

توجه الثعلب بالسؤال الى الرجل عما تريده الحية منه فقال:

- إنها تريد أن تقتله

رد الثعلب على الفور:

- ماذا تنتظر؟ إنها ممددة وها هي الأحجار حولك.

تناول الرجل حجرة كبيرة ونزل بها على جسم الحية وأجهز عليها حتى قتلها وتخلص من شرها.

التفت الرجل الى الثعلب وتوجه إليه بجزيل الشكر والامتنان على موقفه الرائع وانقاذه لحياته من شر الحية، وطلب منه أن يأمره بأي شيء يريد مقابل هذا الاحسان، لكن الثعلب قال بأن ما فعله أمر طبيعي ولا يستدعي كل هذا الشكر، لكن الرجل أصر على شعوره تجاه الثعلب، وقال بأنه لن ينسى أبداً هذا المعروف الجميل.

لذلك طلب الثعلب منه أن يحميه من صياد يلاحقه برفقة كلبين شرسين، وهو يريد اصطياده، وإن استطاع أن يفلت من ملاحقة الصياد، فإنه لن يفلت من ملاحقة الكلبين الشرسين، وقال بأنه سيختبئ في حرش مجاور قريب منهما، وإذا وصل الصياد وسأله عنه فعليه فقط أن يضلله ويقول بأن الثعلب كان يجري من هنا واتجه نحوتلك الأدغال البعيدة، وبذلك سيفلت من المصيبة. قال الثعلب ذلك برجاء وتوسل، فوافق الرجل وقال:

- أهذا كل ما تريده؟ إنك أنقذت حياتي، لا تبالي، اختبئ وسوف أضلله.

اختبئ الثعلب في الحرش المجاور، وسرعان ما ظهر الصياد برفقة كلبيه الشرسين، وسأل الرجل عما إذا كان قد شاهد ثعلباً يمر من هنا أم لا؟ فرد الرجل:

- نعم لقد كان يجري لاهثاً واتجه نحوتلك الأدغال البعيدة – وأشار بيده الى جهة بعيدة – ويصعب أن تمسك به.

واستطرد الرجل سائلاً الصياد:

- لماذا أنت مهتم كل هذا الاهتمام بأمر الثعلب؟

فأجابه الصياد:

- إن فروة ذاك ثمينة جداً، وعليّ أن أحصل عليها مهما تعبت.

قال الرجل:

- كم تعادل هذه الفروة، مئة ليرة ذهبية؟

رد الصياد:

- لا، إن ثمنها لا يقل عن ألف ليرة ذهبية.

لما سمع الرجل كلمة ألف ليرة ذهبية، قال للصياد:

- إذا أخبرتك عن مكان اختبائه، هل ستعطيني نصف الثمن؟

رد الصياد:

- نعم، أخبرني وسأعطيك نصف الثمن.

وسرعان ما أشار الرجل الى الحرش الصغير المجاور، وانقض الكلبان على الثعلب المسكين وأحضراه الى الصياد.

وهكذا فقد قيل " ما من كائن أو شيء أكثر سوءاً من ابن آدم ".

وإذا كان في هذين النموذجين حضور للعنصر البشري – الانسان – كمحرك لعملية بناء الحكاية، الى جانب العنصر الحيواني، كشخوص فاعلة في الحكاية فإن هناك نمطاً آخر من حكايات هذه المجموعة تقتصر فيها الأدوار على العنصر الحيواني، أي أن الحيوانات هي التي تقوم بأدوار شخوص الحكاية أو الاقصوصة، وأورد هنا ثلاثة نماذج مثالاً على ذلك:

هناك الحكاية التي تدور حول القول المأثور " الطمع يقتل صاحبه " وهي تقول:

الطمع يقتل صاحبه

كان ياما كان، ذات يوم خرج أسد بغرض اصطياد فريسة بعدما شعر بالجوع.

سار في البراري فرأى أرنباً وركض نحوه، ولما أحس الأرنب بالخطر قفز من مكانه وأخذ يجري بكل ما أوتي من قوة، إلا أنه تعذر علية الخلاص من مطارة الأسد، الذي اقترب منه وكاد أن ينقض عليه لو لا أنه رأى على مقربة منه ماعزا ً، وقال لنفسه:

- إن هذا الأرنب لا يكفي لأن يبل ريقي.

وترك الأرنب واتجه نحوالماعز التي ركضت مسرعة، إلا أن الأسد لحق بها وما أن وصل إليها وكاد أن يمسك بها وينقض عليها، حتى رأى غزالة جميلة تقفز على مقربة منه، فقال الأسد لنفسه:

- إن هذه الماعزة لا تكفيني إلا لوجبة واحدة، أما الغزالة فلحمها أكثر، ثم انه ألذ وأطيب.

ترك الماعز واتجه نحوالغزالة التي ما أن رأت الأسد حتى قفزت في الهواء وصارت تجري بسرعة الريح.

تبعها الأسد، والغزالة المسكينة تسعى جاهدة للخلاص من شره. طالت المطاردة دون أن يتمكن الأسد من الامساك بها ولو أنه بات على مقربة منها، واستمرت المطاردة الى أن اقتربوا من نهر عميق، ومن شدة الفزع قفزت الغزالة بكل ما تمتلك من قوة وعبرت من فوق النهر، وغابت في الأجمة التي وراءه.

وصل الأسد الى حافة النهر متعباً وقد غابت الغزالة عن ناظريه، وفكر في عبور النهر، إلا أنه عندما نظر في الماء وجد فيه كائناً ضخماً مخيفاً – لم يعرف أن ذلك

انعكاس صورته على سطح الماء – ونسي الغزالة، وفكر في الانقضاض على هذا الكائن الضخم وافتراسه، وهو يقول لنفسه:

- إنه صيد محرز

وبكل ما أوتي من قوة انهال بجسمه في الماء لاقتناص صيده، فابتلعته دوامة في النهر وغاب الى الأبد، وهكذا فقد قيل " الطمع قتل صاحبه ".

الأقصوصة الثانية تدور حول القول المأثور " الحمار لا يصبح ملكاً " وتقول:

الحمار لا يصبح ملكاً

اجتمعت جميع حيوانات الغابة لإنتخاب ملك لهم، وبعد مداولات وآراء عديدة واقتراحات مختلفة وقع الاختيار على الحمار فالتفوا حوله وزيّنوه بالشارات والنياشين اللازمة، وبدا الحمار رزيناً وقوراً وذا حضور جسدي أمام الثعلب والماعز والكلب والأرنب، وعدد آخر من الحيوانات بما فيهم الأسد.

قرر الجميع الولاء لملكهم المنتخَب، وبعد مضي فترة من الوقت، والحمار يمشي عند السفح، وقف فجأة وصار ينهق، سمع الأسد نهيق الحمار وأحس أن هذا الصوت ليس غريباً عليه، وفكر قليلاً وعرف أنه الحمار، وما هو بملك، فهرع إليه وانقض عليه ينهش في جسمه. وهكذا قد قيل " الحمار حمار ولو زينته فلن يصبح ملكاً ".

المثال الثالث هنا، يدور حول دهاء الثعلب، وهو أشبه ما يكون بالنكات والطرائف الكثيرة من هذا النوع في التراث الشفهي الكردي.

يروى أنه ذات يوم، افترس أسد شاةً وأكلها، وجمع كل حيوانات الغابة وخطب فيهم، أنه أكل لحم الشاة وأنه سيقوم بفتح فمه ويطلب منهم واحداً واحداً أن يشموا فمه، فيما إذا كانت الرائحة تفوح منه أم لا؟ والذي سيخطئ سيأكله الأسد.

وهكذا وقف الأسد وفتح فمه وطلب من الأرنب أن يشمه، وسأله ما إذا كانت الرائحة ماتزال تفوح منه أم لا؟.

أجاب الأرنب:

- نعم.

فانقض عليه الأسد وأكله، وتلاه الغنمة التي ما أن رأت المشهد حتى قالت:

- لا.

فأكلها الأسد أيضاً ودب الذعر في نفوس الحيوانات المسكينة أمام هذا الكابوس، فلا الذي يقول: نعم يخلص ولا الذي يقول: لا.

وجاء دور الثعلب، الذي اقترب من الأسد وقال له:

- سامحني يا سيدي فأنا اليوم مصاب بالزكام ولا أشم جيداً.

وهكذا استطاع أن يفلت من المصيبة.

جدير بالذكر هنا، هو أن الحكايات الثلاثة الاولى المذكورة في هذا البند قد صدرت ضمن اصدارات مستشرق الاتحاد السوفيتي السابق، باللغة الكردية والروسية، وهي مأخوذة من الرواة الشعبيين في المناطق الكردية – الكرمانجية. وهذه الأخيرة هي اللهجة التي تستعملها غالبية الشعب الكردي، وتليها الصورانية واللورية والزازائية، وهي مجموع لهجات اللغة لكردية.

٥- مجموعة الملاحم الفولكلورية المطولة، وهي على نوعين، حكائي وشعري، إلا أننا نجد كثيراً تداخلاً بين ما هو حكائي وما هو شعري في غالبية الملاحم، وقسم منها يتم روايته حكائياً وآخر يتم غناؤه، وكذلك هنا أيضاً نجد جمعاً للشكلين في غالبية الملاحم. وقد أصبحت لها مقاماتها الموسيقية الرائعة في ايقاعاتها المنفردة أو الاوركسترالية وباتت تشكل صرحاً موسيقياً شامخاً وجزءاً لا يتجزأ من الموسيقا الفولكلورية الكردية.

وهذه المجموعة حافلة بملاحم الحب والعشق الخالدة مثل (Khaji u siyaband) خجي وسيابند.

الواقــع والخيـال الفولكلـوري
درويشي عفدي أم دلال ؟

إذا كان الشعب الكردي هو أحد الشعوب العريقة في منطقة الشرق وأكثرها فجائعية ومأساوية وبؤساً، على صعيد التاريخ قديماً وحديثاً، وأكثرها تعرضاً للمظالم وخطط الإبادة الشاملة والتصفية الجسدية والثقافية والقومية، فإن ظاهرة البطل – الفرد في فولكلوره، تعكس حقيقة الرغبة الاجتماعية المكبوتة، في أشد حالاتها تكثيفاً وجموحاً أو حتى تحدياً أو يأساً مقاوماً، وشخصية دلال في هذا الاطار هي احدى أبرز تجليات هذه الظاهرة وأكثرها وضوحاً وشمولية.

دلال هو أحد الأبطال الشعبيين التراجيديين تماماً، إنه هو ذاته الكردي المهدور، الطيب، العنيد، الكردي المستغرق في الثأر والأخذ به، الساذج والخطر، الكردي الفجائعي، الكردي الضحية وربما الفتاك أيضاً.

دلال، ملحمة فولكلورية ذات شقين، أو نصفين متكاملين، الأول هو السيرة الحكائية المتعلقة بحياة درويشي عفدي الذي يصبح دلال بعد مصرعه، فعشيقته عدولة هي التي أسمته دلال بعد نهايته المأساوية، كتأكيد عفوي ساطع على حبها العارم والحاسم له، وتتضمن السيرة الحكائية كذلك جوانب من حياة اسرته واسرة إبراهيم باشا، وإسكان باشا وزورتمر باشا، المللية، وهؤلاء كانوا وقتها زعماء عشيرة Miliyan الكردية، وحصلوا على لقب " باشا " من سلاطين الدولة العثمانية، وأحفاد هذه الاسرة ما يزالون يعيشون حتى يومنا هذا في بلدة " راس العين " شمال شرق سورية في المنطقة الكردية ومعروفون حتى الآن بأسرة " الباشا ".

وهذه السيرة الحكائية تعرف باسم حكاية " درويشي عفدي " يتناقلها الرواة الشعبيون الأكراد حتى الآن، ويختلفون فيما بينهم في رواياتهم حول العديد من الأحداث والتفاصيل.

ولأنني عملت في اعداد الشق الثاني من الملحمة " دلال " وترجمته الى العربية، قبل عدة سنوات، ولم تتوفر لي الظروف المناسبة للعمل في اعداد القسم الحكائي أو الشق الأول، لذلك ولتوضيح صورة دلال ومعناه أكثر للقراء سأقدم هنا ملخصاً لحكاية " درويشي عفدي " كما هي متداولة ومعروفة في بعض من رواياتها في منطقة عفرين الكردية:

درويشي عفدي

يحكى أن شخصين من عشيرة " Milliyan " كانا قد التجئا الى عشيرة " Chil Ibrami Turk " طلباً للحماية، وذلك لجناية كانا قد ارتكباها.

وخوفاً من العقوبة فرا من عشيرتهما وخرجا عن طاعتها، وظلا يعيشان في كنف "Chil Ibrami Turk" وباتا من رعيته.

وذات يوم وهما في مجلس المضافة، وقد اجتمع وجهاء العشيرة كلهم، سمعا أن Chil Ibrami Turk قد قرر غزو عشيرة Milliyan وقتل رجالها وأخذ كل ممتلكاتها ونسائها كسبايا ومحظيات وأنه أوعز الى رجال عشيرته باعداد العدة لتنفيذ ذلك.

وعند سماعهما لذلك، تشاورا بين بعضهما البعض سراً وقالا بأنه لو كان الأمر مجرد مصادرة ممتلكات لكان هيّناً علينا، ولو كان مجرد مبارزة للثأر لهان علينا أيضاً، أما وأن الأمر هو انتهاك أعراض وحرمات، فيستحيل علينا السكوت عنه، وقررا الهروب خلسة الى عشيرة Milliyan ولو قطعوا رأسيهما.

وهكذا انتهزا أقرب فرصة للهرب ووصلا الى مضارب عشيرة Milliyan وديارها، وقبل الوصول الى مضافة الباشا المللي صادفا بعضاً من الناس، الذين فُوجئوا بظهورهما في مضارب العشيرة، وحرصاً منهم على حياتهما طلبوا منهما الاختباء والهرب، لأنه لو رآهما الباشا فإنه سيعلّق رأسيهما على الفور.

لكنهما واصلا المسير الى مضافة الباشا وذهبا إليه وأحنيا رأسيهما أمامه وقالا:

- لقد جئنا، لأننا لم نتحمل ما سمعناه من أفواه عشيرة Chil Ibrami Turk عن رغبتهم في غزو عشيرتنا وقرارهم باجتثاث بذرة الذكور منها وسبي النساء والممتلكات، فلو أن الأمر كان مجرد استحواذ على الأموال أو استيلاء على الممتلكات لَما كنّا نجيء، لكن

وأن الأمر بلغ حد انتهاك الأعراض والحرمات وأخذ نساءنا كسبايا ومحظيات، فإن نخوتنا لم تتحمل ذلك، وها نحن قد جئنا وأخبرناك بالأمر وتستطيع أن تعلّق رأسينا أو تعفو عنا.

فعفى عنهما الباشا وعادا الى ذويهما، وعلى الفور دعى مجلس العشيرة ووجهاءها الى الاجتماع.

وهكذا اجتمع وجهاء عشيرة Milliyan وكبار فرسانها وأولياء أمرها، وخطب فيهم زور تمر باشا مخبراً إياهم بالغزو الوشيك الذي ستتعرض له العشيرة، واستفاض في الحديث عن مآرب الغزاة في قتل الرجال وهتك الأعراض وسبي النساء والممتلكات، وذلك في محاولة منه لاستثارة النخوة والشهامة فيهم، الى حد أنه عرض ابنته عدولة للزواج ممن ينازل " Chil Ibrami Turk " و" Afari Qaysi " ويرديهما.

وأمر بأن ابنته عدولة ستحضر قهوة الشرف وتجوب بها فيما بينهم، والذي يريد خوض النزال هو الذي سيتناول فنجان القهوة ويشربها، وستبقى عدولة في انتظاره حتى يعود ظافراً من النزال وستتزوج منه وسط الأفراح والدبكات.

أمر ابنته باحضار القهوة التي جاءت وهي بكامل أبّهتها الكرمانجية، وفي يدها صينية فضية عليها فنجان قهوة الشرف ذات الصحن الذهبي، وأخذت تطوف بين الحضور واحداً تلو الآخر، لعلها تجد واحداً منهم يرفع رأسه إليها ويتناول فنجان القهوة منها، ولكن دون جدوى، فقد وصلت الى آخر رجل في المجلس ولم تفلح في أن تجد من يتناول فنجان القهوة ويتصدى للغزاة أو يطلب منازلتهم في صباح اليوم التالي.

لقد كان الجميع مطأطئي الرؤوس ينبشون الأرض أمامهم تحت خيمة الباشا المللي الذي آلمه الشعور بالخذلان وخيبة الأمل.

التفتت عدولة الى والدها وقالت له:

- لا تبالي يا أبتاه، فهؤلاء القوم جبناء متخاذلون، هناك من سينتقم من أعدائك ويثأر لك ويرد عنك شر الغزاة، إنه الوحيد الذي تستطيع أن تعتمد عليه ولن يخذلك أبداً، إنه درويشي عفدي.

هنا أمر الباشا بفض المجلس، وجهز فارسين على وجه السرعة وأرسلهما في طلب " درويش "، وقد استغلت عدولة الفرصة وكتبت رسالة بخط يدها الى درويش وقصّت

خصلة من شعرها ووضعتها في قطعة قماش وربطتها على شكل صرّة صغيرة، وسلمتها الى أحد الفارسين، الذين شدا الرحال على عجلٍ الى ديار " عفدي ملحم " والد درويش.

لقد كان عفدي ملحم والد درويش أحد وجهاء اليزيديين في جبل سنجار وكان قد قضى سنوات طويلة من عمره، واحداً من أشد الفرسان الذين آزروا المللِيين في مخاطرهم، لكنه في النهاية ابتعد عنهم والتجأ مع عائلته واخوته الى منطقة نائية في قمم جبل سنجار.

وصل رسولا الباشا المللي الى ديار عفدي ملحم، عند المساء بينما كانوا يتهيأون للنوم، أحست زهرة أخت درويش أن فارسيين يتقدمان من الدار، فسألت:

- من هناك؟

أجابا:

- نحن رسولا الباشا المللي نريد أن نرى درويش.

ودخلا فسحة الدار وصعدا المصطبة التي كان درويش جالساً عليها في فراشه، فحيّاه وجلسا الى جواره، ثم اقترب والد درويش واستفسر عن الأمر، فأخبراه بالغاية التي جاءا من أجلها، وأنهم يطلبون النجدة من درويش، وأن الباشا قد وعد بأن يزوج ابنته له.

غضب عفدي ملحم وفار الدم في عروقه قائلاً:

- لقد فعلتْ من أجلهم ما لا يفعله أحد، ووضعت دمي على كفي في الدفاع عنهم مراراً وتكراراً، ورغم ذلك وبعد زوال الخطر عنهم وشعورهم بعدم الحاجة إلينا، كانوا يعيّرونني بأنني يزيديون فقراء أقل مرتبة منهم ولا مكان لنا في صفوفهم.

بعد ذلك ناول أحد الفارسين الرسالة الى درويش، الذي قرّب الفانوس الى جانبه وشرع في قراءتها، وعرف أنها رسالة عدولة وهي تطلب منه المجيء لصد الغزاة.

وعندما وصل الى حديثها عن أهداف الغزاة في اجتثاث بذرة الذكور من العشيرة وانتهاك أعراض نسائها، انتصب في جبينه عرق الشهامة والرجولة، وانفلقت شفته السفلى ونزلت قطرات الدم من شفته على الرسالة، فانتبهت أخته زهرة لذلك وقالت له:

- لا تبالي يا أخي، إذا كان قد أصابك شيء من الفزع والخوف، فأنا سأقوم بالمهمة عنك وسأعدُ فرسي وأرتدي الدرع وأحمل الرمح وأجندل من ثكلته أمه منهم وأشتت البقية وأبعثرهم بحيث لا يبقى منهم أثر، ألستْ أنا أيضاً من ذات المنبت الذي أنت منه؟

رد درويش على أخته قائلاً:

- تستطيعين أن تفعلي ذلك حين نـدفن في الـتراب ولا يبقـى رجـلاً في سـلالتنا، أمـا ونحن ما زلنـا أحيـاء فـإن الميـدان لنـا يـا أختـاه، أنـا لم أخـف، لكـني لم أسـتحمل عـاطفتي وغليان دمي وكأن عرق رجولتي يكاد أن يتفصد غيظاً وغضباً.

عند ذلك دس الرسـول الصـرّة الصـغيرة في جيـب درويـش الـذي تحسسـها وعـرف أنهـا خصلات شعر عدولة، وأعلن درويش موافقته وعزمه على منازلة الغزاة ودحرهم.

هنا تدّخل والده وأبدى معارضته له وعدم قبوله بما عزم عليه قائلاً:

- يا بـني، أنـت لا تعـرف المللـيين، لا أحـد ينكـر الجميـل بسـرعة مثلهم، لقـد أنقـذت الباشا ذاته من الموت مرات ومرات، ورغم ذلـك فقـد قـالوا عنـا بعـد ذلـك أنهـم يزيـديون فقـراء، لا يعـادلون أربعـة قـروش ونصـف. في كـل مـرة عنـد الحاجـة كـانوا يتضـرعون ويتوسلون في طلب النجدة، فقد حدث أن تم أسر زور تمر باشا ذاته في " أورفة " واقتيـد وسط حراسة الفرسان الى منصة الإعدام، وقد كنت هناك وهم يقتادونه صاغراً الى الموت، فاستللت رمحي وأخـذت أشـتت في الجمـع الى أن وصـلت إليـه وفككت قيـوده وأنقذتـه مـن الإعدام. وقد وعدني على إثر ذلك بأن يزّوجني أخته " رحمة " التي هي عمّة عدولـة. وحدث أيضاً أن كان في رحلـة صـيد وكنـت معـه وجلسـنا في منطقـة قريبـة مـن مـاء نهـر لنستريح قليلاً وتركنا جيادنا سارحة حولنا، وانشغلنا في متعـة الجووكنـا علـى وشـك أن نغفوحين فوجئنا بأن عـدداً مـن الفرسـان قـد طوقونـا ويريـدون أسـرنا أو قتلنـا، وعلـى وجه السرعة امتطيت فرسي وأخذت أناولهم الـرمح تلـو الـرمح حتـى أن تفرقـوا وعـادوا هاربين، وعدنا نحن سالمين، كل هذا غير الحروب والوقائع التي لا حصر لها وهم يعرفونها أكثر مني، ولا أذكر أننا هزمنا في واحدة منها، ورغم ذلك فقد نكثوا بوعـدهم لـي وقـالوا إنهم يزيديون لا يعادلون أكثر من أربعة قروش ونصف. إن هؤلاء المللـيين قـوم جبنـاء يـا بني وعديموشرف، إنهم كلما داهمهم الضيق والخطر يضعون أعراضهم في المزاد، تلـك هـي عادتهم، ومن رأيي أن لا تذهب، فسيفعلون بك ما فعلوا بي من قبل.

التفت درويش الى والده وقال:

- حسناً يا أبتاه، ولكن من الأجدر بنا أن نحمل أغطيتنـا معنـا الى قعـر الـوادي لنطمـر بها رؤوسنا، كي لا نسمع ولاويل واستغاثات نسائنا عند قدوم Chil Ibrami Turk.

عندئذ قال عفدي ملحم:

- يا بني درويش، إن قلبي يحسسني بأن مكروهاً سيحدث لك في هذه البلية، لقد رأيت حلماً الليلة الماضية، وكان عرساً كبيراً وقد اصطف الرجال والفرسان في الدبكة وهم يرقصون ويغنون، رأيتك في رأس الدبكة مأخوذاً بنشوة الرقص ومتعة التدبيك، وأخاف أن لا يمر هذا الحلم على خير، وإذا كان لا بد لك من الذهاب فخذ فرسي " Dele mafe " فهي ستنقذك إن حدث لك مكروه، إنها كانت أو فى من عرفته في حياتي ولن تخونك.

وبينما كان عفدي ملحم يروي مزايا فرسه، كان درويش قد نادى على أبناء عمومته وأخيه الأصغر وكانوا يعدون جيادهم، وما أن مرت فترة وجيزة حتى كانوا على الطريق متوجهين الى ديواينة الباشا المللي.

بوصول درويش الى مضافة زور تمر باشا المللي، دعى الأخير مجلس العشيرة وفرسانها الكبار الى الاجتماع، وأمر عدولة باحضار القهوة، وطافت بالحضور، لكن أحداً لم يتقدم الى تناولها، الى أن وصلت الى درويش حيث رفع بصره الى عدولة وتناول من يديها فنجان القهوة وشربها.

وهكذا فقد شاع بين العشيرة أن درويش هو الذي سيستكشف الميدان ويكون أول المبارزين في صد الغزاة.

في اليوم التالي امتطى حصانه وسار نحومضارب " Afare Qaysi " الذي سيشترك مع " Chil Ibrami Turk " في غزو المللين.

ولما وصل هناك واستفسر عنه، ظهرت له امرأتان وعرفتا أنه ليس بزائر أو ضيف وإنما هو فارس نزال ومبارزة، وجاء يريد شراً، فاقترحت احداهن عليه مبارزتها وقالت بأنها من ذات المنبت الذي ينتمي إليه " Afar " ويبدوأنها كانت شقيقته، لكن درويش أبى ذلك لأنه لا ينازل النساء فإن ذلك عار كبير لفارس ملأ صيته الآفاق وأودع بيده نصف الهالكين الراقدين في القبور.

عند ذلك سمعه أحد الشيوخ العجائز وقد كان جالساً تحت الخيمة وخرج منها واقترح أن ينازله هو فإنه رجل وما يزال يستطيع أن يجندل عتاة الفرسان، لكن درويش رفض أيضاً قائلاً:

- معذرة إنك شيخ من جيل والدي، ومن العار عليّ أن أبارز رجلاً طاعناً في السن.

وعاد أدراجه، وبينما لم يسر بعد مسافة طويلة عن المضارب التقى " Afare Qaysi " برفقة ابن أخية وهو شاب في حوالي السادسة عشرة من العمر، فحياه Afar وسأله عن أحواله، لكنه رأى درويش متجهماً عابساً ولم يرد عليه التحية.

وفي الحقيقة فإن Afar كان أيضاً فارساً شديداً، يكنُ احتراماً كبيراً لدرويش على شهامته وشجاعته، وكان يتجنب أي خصام معه. لذلك تحدث الى درويش بتودد بالغ، أما عن موضوع الغزو فطلب من درويش راجياً أن ينسحب من الموضوع فهم يريدون الانتقام من المللیين.

لكن درويش استلّ رمحه وناول الشاب الصغير ضربة أردته على الفور، وذلك لمزيد من الاستفزاز لـ Afar ، لكن الأخير لم يستفز ورد على درويش قائلاً:

- حسناً إننا لم نراك منذ زمن، وها قد جئت الى مضارب أخيك، وأنا قدمت ذبيحة إكراماً لمجيئك.

لم يستحمل درويش ذلك الموقف وعاد بصمت الى عشيرة المللیين.

في اليوم المقرر لملاقاة Chil Ibrami Turk في ميدان متفق عليه، تقدم بحصانه ثلة من أشد الفرسان وسار في اتجاه الميدان، ولأن الخصوم كانوا يعرفون بسالته وشجاعته واستحالة التغلب عليه في المبارزة، فقد اختاروا ميداناً في أرض مليئة بأوكار الفئران.

وجاؤوا الى المبارزة سائرين بأحصنتهم على تخوم الميدان دون التوغل فيها، مما أثار غضب درويش أكثر فافتاد حصانه مسرعاً باتجاههم، لكن الحصان المسكين تعثر بأوكار الفئران وغصّت قائمتاه في الأرض وتكسرتا، وتجندل على الأرض مع فارسه، الذي وجد نفسه مترجلاً وحيداً وسط جموع من فرسان Chil Ibrami Turk الذين أمطروه بالرماح ولم تنفع كل بسالته ومقاومته بشيء في تلك الحالة، وخرّ صريعاً يتعفر في دمه.

وبمصرع درويشي عفدي تنطوي صفحة حكايته، وتبدأ فصول ملحمة دلال، على لسان عدولة ابنة الباشا المللي على شكل تداعيات شعرية مفتوحة على صراع الموت والحب، وقهر التمييز الاجتماعي التعسفي، وفروسية المحبين والعشاق عبر الأزمنة.

دلال[1]

مقدمة

دلال، نص فولكلوري يروي قصة حب عدولة ابنة زروتمر باشا المللي لدرويشي عفدي، من خلال تداعياتها الحارة، التي جاءت على شكل ملحمة غنائية مفتوحة تشكل أساساً، من حيث الوقائع والأسماء، الامتداد المكمل لملحمة درويشي عفدي، لأن دلال هو الاسم العاطفي الذي أطلقته عدولة على حبيبها درويشي عفدي، بعد مقتله مباشرة، وهو هنا بمعنى الحبيب.

واسم دلال في العربية، يطلق في الغالب على الفتيات، ولكن من خلال ترجمتي للنص، ارتأيت من الناحية الجمالية ابقاء اسم البطل كما هو، وكما أطلقته علية عدولة في سياق تداعياتها الدرامية.

في هذا العمل أقدمت على تقديم روايتين للملحمة، وهناك عدة روايات متقاربة أخرى لها، وجميعها تتفق في جوهر سردها ومواقفها.

وقد اعتمدت بشكل كبير في الرواية الثانية، على ما أنجزه مشكوراً المغني أبوصلاح، من خلال جمعه لأكثر من رواية للملحمة، ثم دمجها وتقديمها في شكل متماسك وجامع، وتقيدت في كتابتي للنص الكردي بالروايات التي سمعتها، لغةً وصياغة، وكما قلت في البدلية فإن هذا النص الفولكلوري مفتوح على كل التياعات قلب عدولة، وكل ما جاء هنا هو على لسانها، وهي تروي لنا حبها العنيف لدرويشي عفدي.

---

(١) نشرت هذه الترجمة مع النص الأصلي بشكل رسمي في دمشق عام ١٩٩١ في كتاب مستقل.

دلال أو تداعيات عدولة

الرواية الاولى ...

سأقول آه، على مر العمر، وسنوات الحياة
وكل ما تبقى لي من الوقت هنا
سأطلق العنان لتأوهات روحي
لتأوهاتي العميقة
أنا الرجيمة بمصائب الزمن
التاركة صلاة الدنيا
أنا يا حبيبي قطعت ضفائري
وترملت بعدك الى الأبد
لن أصبح في حياتي كنّة أو عروسة لأحد
قلبي دير واسع، دير هو قلبي
أما من شمس تطلق شعاعاتها الباكرة على خيم ومضارب
البراري الجنوبية على سفوح هضبة " كوزن شهر "[1]
على قلعة ماردين، قلعة الصبايا والفتيان، من العشاق
على الفتيات الجميلات والغلمان التعساء
أما من شمس تبسط
خيمتها على بياض الثلوج في القمم المزدحمة؟
آه يا أمي
إني أرى شبحاً
يتراءى لي، فرساً متعبة، وفارساً شديداً

---

(١) اسم مكان.

يا أمي، أمامه

الترس، في يده الرمح والدبوس

ينحدر جنوباً، تئن تحته الفرس

تترنح متثاقلة، لست أدري

ان كان من خطأ في وضع حدوات القوائم متعاكسة

بين الميمنة والميسرة أم من مسامير الحدوة

أو ضربات مطرقة الحداء؟

آه ياأمي

ليتني أرى قبل الممات

أن فارس " الهدبان "[١]

قد عاد بالخير من مضارب الجنوب،

لفتحت له أربعة وأربعين زراً شامياً في قميصي

سأحرم على نفسي اتخاذ الخلان والعشاق

وكل معشر الرجال بعد دلال

سأقول آه، مدى الحياة

سأقول آه، أيها الحبيب دلال

ياأمي

لست أدري أكيكية[*] أنا أم مللية[*]،

أم أنا مخطوبة (أو سبي علي)

لست أدري لمن سأكون لائقة

ما أنا إلا لائقة بكبير الفرسان

بشارب درويشي عفدي السوسني الداكن،

فارس الهدمان العنيف

ليتني وجدت نفسي قبل الممات امرأة في داره

---

(١) هدبان: هواسم حصان دلال.

(*) نسبة الى اسماء العشائر.

تقوم على خدمته

آه منك أيها المسافر ... أيها الضيف البعيد

من بعدك سوف لن أفتح باباً لبيت أحد

لقد وضعت كل أشيائي في انتظارك

وهيأت نفسي لك أيها الحبيب دلال

في انتظارك

سواعدي الغضة ومعصماي الطريان

المزدانان بأساور من فضة وذهب

عيناي المكحلتان، من تلقاء نفسهما

كفّاي، وأظافري المحتاة

ورائحة أصابعي التي من طيبها تمد

العصافير أعناقها من الأعشاش

وتخرج الأفاعي رؤوسها من الجحور

في انتظارك

حلمتاي في تخوم صدري

شجيرتان بيضاوان متوجتان بالأحمر

معجونتان من عصير الفواكه الحلوة وشفافية الخضار

معجونتان بإجاص " أضنة "(*) وعذوبة السفرجل

بملبن وبسطيق " عنتاب "(*) ، وخيار " ملاطية "(*)

بتفاح " هيامي "(*)

أيها الحبيب، أنا الرجيمة بمصائب الزمن

آه فلأمت قريباً من مكان جنوني

أربعة وأربعون نبعاً، تفجرت مياهها المجنونة

انها تسيل زاحفة إلى الأمام، معلنة ربيعها

(*) أسماء مدن.

انه الربيع ياحبيبي

تفتـقت كل أزهار الجبال، وأطلقت ألوانها الصارخة

انه الربيع أطلق هدوءه

مع حومان الطيور المائية

القادمة الى السواقي والأنهار الطويلة

والتي ترقص كأنما وجدت نفسها في عرس كبير

ثلاث خيام كانت تلوح لي

على القمة العالية لجبل عبد العزيز، وتبدوعامرة

الخيمة التي في الغرب كانت خيمة " عمري عفيه "

وواحدة منها خيمة زور تمر باشا المللي

والخيمة التي في جهة الشرق، كانت خيمة دلال بيت والدي

خيمة دلال مقفرة كمقبرة مهملة

مهجورة خيمة حبيبي

أيتها العشيرة الباطلة

ألا يوج فيك أحد يمتلك نخوة أن يشد يدي ويرميني تحتها

لأرى قبل مماتي انني كنت امرأة لحبيبي دلال تحت خيمته العتيدة؟

سأقول أيها المسافر تعال الى المضافات

إني أستضيفك

أيها الحبيب

آه يا أماه

سأقص ضفائري الطويلة، ضفائري المحناة،

سأعمل فيها المقص وأجعل منها عصبة أشدها على جبين دلال

وسأجعل من أطواقي الذهبية – المحمودية[1]

رسناً ومقوداً لحصانه

---

(١) الذهب المحمودي: عملة ذهبية نسبة الى السلطان العثماني محمود.

سأخلع زوج الخلاخيل من قدميّ، وخزام أنفي
وأجعلها حدوات ومسامير ناعمة لقوائم حصان فارسي
سأضع ركبتي على ركبة حبيبي، وأتحدث إليه
وكلما هاج قلبي، سأضغط ملء قوتي
سأضغط بقوة لو وضعتها على المرمر لحفرت فيه
عمق شبر وأربعة أصابع
سأجعل الدم القاني بين ركبتينا قطراناً أسود
وسأبقى ألاعبه حتى انبلاج الشفق، وضباب الصباح
حتى تسمع أصوات خض اللبن في القِرَبْ
سأفتح له تخوم صدري العاجي الأبيض
وأبيح له حلالاً كحليب أمه.
مع كل أصوات الصباح
وركض أرائمنا الثلاث قرب البيوت
تلك التي كانت ترقص في ركضها
واحدة من أجل حبيبي دلال، واثنتان لأصدقائه
وأحبته مع كل تلك الأصوات والحركات سأقول دلال
أيها المسافر تفضل الى المضافات
لأستضيفك يا حبيبي
آه يا أماه
لتحرم عليّ كل الملذات
ولن تكون عيني على أحد من الرجال والفرسان بعد دلال
ولن أفتح أربعة وأربعين زراً في قميصي لأحد
الى أن يوضع رأسي بين شواهد الحجر وتراب المنحدرات
إن قلبي ليجمح بشدة
قلبي يجمح يا حبيبي
لا هو قوس فولاذ، ولا هو حجر

ولا أنا أستطيع أن أكون بغلة مما خلق الله

في عنقها أجراس

أو ذيلها مثقل بالشراريف[1]

لا أستطيع المكوث في الاسطبل مربّطة

وسأبقى أجمح في قيودي وأثور

ساعة يتعالى صياح الفرسان، وأنين الجرحى

ويتصاعد صليل السيوف، في خيم البراري الجنوبية

سأكون خير طبيبة لك وحكيمة

إن قلبي لجامح، قلبي جامح ياأمي

لست أدري إن كنت بتولة عذراء أم امرأة ذات بعل

أنا منتظرة التياعات دلال العنيفة

كيمامة حرة، أنقر بمنقاري، وأحجل بقوائمي حجلاً

على قمة جبل عبد العزيز وصخوره

أنا سند لك، أيها الحبيب دلال

في ساعات المحن

حين اشتداد صرخات الفرسان، وأنين الجرحى

أنا قوة في ظهرك

عالية هي الجبال، كم هي في العلاء هذه الجبال؟

من فوقها مبللة بالضباب

وتحتها الدخان والأبخرة تسوح

نظرت الى جرح قلبي، كان عميقاً

يمد شروشه الى أعماقي، ونقي عظامي

لم أعثر له على بلسم أو مرهم أو علاج

مامن علاج سيكون لهذا القلب الكسير

---

(١) الشراريف: ج الشرافة وهي زوائد من الخيوط المفتولة أونحوها.

آه.. يا دلال

لو أني رأيتك قبل الممات

تجيء ضيفاً الى بيتنا لشمرّت زنودي

وذبحت لك خروف الحظيرة المدلل

سليل الكبش الشهير في القطيع، مولود الشاة الأصلية

ولو أن والدي، ذات صدفة، سألني

أين خروف الحظيرة المدلل يا " عديتي "[1]

لقلت له

أبتي، حين اشتد الزمهرير في أربعينية الشتاء

كان الليل حالكاً، والسلوقي متأهباً في عقب الكلبة، الحارسة

التي كانت مشغولة بسعير شهوتها، عن القطيع

الذئب كانت جائعاً ومهتاجاً

والراعي كانت نؤوماً، لم يعد الخروف مع القطيع

هكذا سأقول لوالدي

وأعطيه اجابتي القاطعة يا حبيبي.

آه... يا أماه

قبل أن أودع ضيف مضافة والدي

سأشمر زنودي البضة

وأعد فطور الصباح بنفسي

من أجل حسرات والتياع قلب دلال سأعد له منسفاً كبيراً

أغمره بمؤونة بيت والدي كلها من السمن والدسم

وقد لا يرضيه هذا، سأمد يدي الى عبي، وأخرج منه المشرط

القاتل – مشرط الانتحار ساعة اليأس من الدفاع عن النفس –

سأفتح أربعة وأربعين زراً في صدري

---

(١) عدية: تصغير تحبب لاسم عدولة.

وأمد السكين الى حلمتي، أقطعمها

وأضعهما على المنسف هبة لشرف دلال

حبيب بيت والدي وبعدها

قبل أن أودعه

وبعد أن يتناول فطوره

سأسرع الى " أوجاق "[1] القهوة

وأعد له قهوة مرة، بيدي

أحضرها له في فنجان ذي صحن ذهبي

أضعه على كفي المحناة

وأقدمه الى حبيبي

وعندما سأحضره اليه، وأقف أمامه

سترتجف يداي، وأرتبك

⋆ ⋆ ⋆

لست أدري ياأماه

أمن الخفر، أم من الارتباك والخجل

أم بسبب عمى العشق

ترتجف يداي وتهتز ركبتاي

فتندلق القهوة على عباءة حبيبي

آه... أيها الضيف المسافر

بعدك فلأحرم من كل النعم والأمجاد في الدنيا

سأقول آه

أنا المفروطة العقد، المكسورة العنق

أنا التي لا سلفة لها أو حماة

---

(١) موقد، كور، بيت النار، كانون

أنا التي تبددت أصابعها العسلية، وذابت كالشمع
سآخذ معي أربعين فتاة من فتيات الموصل
وأربعين لوحاً من صابون " الرها "[1]
وسنتجه الى فراتنا الهدار
سينفذ كل الصابون
سيمّحي لون الحناء من كف الصبايا الموصلليات
وتميل الشمس الى الغروب
دون أن تزول بقعة القهوة من عباءة حبيبي
وتبقى ملطخة بآثار البقع التي خلفتها يداي

★ ★ ★

آه ... أقول آه
ان قلبي قد مال وانحنى
وامتدت جراحاتي الى أعماقي الملتهبة
غبش وضباب أمام عيني
لست أدري إن كان دواراً أصابني
لقد مضى أربعة عشر يوماً بلياليها
على غياب دلال عن خيمة والدي
آه... ليتني أراه عائداً، ليحل ضيفاً عليّ.

★ ★ ★

مازلت واقفة أمام الشبابيك والكوى
أنتظر قدومه
رأيت – أو أنه بدا لي – في عمق السهل الفسيح، الذي

---

(١) الرها: حالياً أورفة.

لا حدود لاتساعه

أعمدة الغبار المتصاعدة الى السموات السبع

عائدة لتهوها فوق رؤوس أصحابها

كأنها تسند السماء على الأرض

رأيت ياأمي

ثلاثة فرسان قادمين

كان أوسطهم دلال، حبيب بيت والدي

مسرعين على الطريق

فرس الأخير منهم، شادة ذيلها على جنبها

كانوا مسرعين كثيراً

هبطت السلالم، ونزلت من المضافة

ورأيت وصولهم

وركضت الى الهدبان، وقلت تفضل

تفضل أيها الضيف الكبير

لقد ربطت الهدبان، بيدي هذه، في الاسطبل

لست أدري يا أماه

ان كان مارأيته حلماً أم حقيقة

وهماً أم شيئاً من عمل الشيطان

لقد ربطت الهدمان بيدي

وصعدت مع حبيبي درج المضافة

ونمنا سوية في السرير، على فراش واحد

وفتحت له أربعة وأربعين زراً شامياً في قميصي

وقد قبلّني من جيدي وعنقي

ومن جبيني القمري، قبلني

من وجهي الوردي الباسم

لست أدري ان كان ما رأيته حقيقة أم حلماً

كذباً من أكاذيب القدر، أم شيئاً من عمل الشيطان
إذ فجأة، وكأنه في غفلة مني
رأيت نفسي وحيدة في السرير
وقد اختفى فارس الهدبان من جانبي
لم أستطع أن أفهم ما جرى يا أمي
فإذا كان ذلك حلماً من أحلام الليل
أو شيئاً من عمل الشيطان
فلماذا كانت مفكوكة أربعة وأربعون زراً شامياً في قميصي
ولماذا المكان الذي قبلني فيه دلال
ملتقى نهديّ معلّم ببقعة حمراء
تدل على قبلة تمت لتوها
أحدث كل هذا من تلقاء نفسه؟
يبدويا أماه، أنهم قتلوا دلال
أو أنه جريح مثخن
آه يا دلال فلأمت بعدك يا حبيبي

* * *

سأقول دلال، وأقول دلال
يا أمي سأبقى أقول دلال
من يبشرني بأنه حي على قيد الحياة
سأمنحه مكافأة الخبر الطيب
الخبر الذي ارتقبه
سأمنحه على البشرى التي أنتظرها
مهرين أصيلين لفرس والدي الأصيلة

ليطارد بهما الأرائم[1] حول البيوت
في حر الصيف عندما يعقد زهر الرمان
وحين تسمع أصوات مناجل الحصادين من البعيد
ويتعالى صرير جنادب تموز
وليبحث بهما عن الصيد أينما شاء على مدى ثلاثة أيام متوالية
دون أن يرى عليهما نقطة عرق، أو أثراً لتعب
وإن لم يرض فسأمنحه سبع طواحين لوالدي على ماء " نصيبين "
وان لم يرض
فسأعطيه أربعة قصور من قصور والدي في مدينة " نصيبين "
وإن لم يكتف بالقصور
فسأعطيه معها من الخزينة، ألفاً وخمسمائة ليرة ذهبية عثمانية

* * *

قال كهل منجولي:
يابنتي، إنهم لكثر، اولئك الذين يقال عنهم دلال
في ساحات البراري الجنوبية، على أرض المعارك
والكثيرات من الصبايا والعرائس، ينتظرن كان منهن " دلالها "
قولي لعمك أوصاف " دلالك " فسأخبرك عنه، وأعطيك بشراه
عندها، قالت المعذبة عدولة:
يا عم، ان قلبي قد جنّ، قد جنّ قلبي
وأنزلت المصائب به من هموم الانتظار
وامتلأ بالجراحات من شدة المصائب
إن مصائبي عميقة ومسمومة
التهبت جراحاتي وتقيحت

---

(١) ج ريم.

دلال بيت والدي، ذوشارب حتائي، غامق، مفتول كالجدائل

في رمحه خمس عشرة فقرة ومفصل

مزين بضفائر أربع عشرة فتاة حسناء

بهذه الأوصاف، اتجه الى ارض المعركة في الجنوب

عندها قال المنجولي:

يا بنيتي، بماذا سأبشرك؟

على مدى ثلاثة أيام بلياليها، اجتمع في أرض المعركة

فرسان سبع عشائر والتحموا

وذلك الفارس، الذي تتحدثين عنه

كان الأبرز بينهم وأشدهم قوة وفتكاً

وكاد أن يقضي على جميع محاربيه

إلا أننا، لجأنا الى حيلة، خدعناه بها

ونجحت الحيلة، بأن زرعنا في جسمه ثلاثة رماح

أخذت مكانها في جسده

فتحنا فيه جراحاً، لا يشفى منها

وإذا شئت فاذهبي

فربما تجدينه ميتاً، أو قد لا تجديه

قالت عدولة:

ليأخذك الله الى غضبه

بقيت أنت، لا أبقى الله أحداً منكم

ولينعق بوم أعمى في دياركم

أتنبئني بهذا الخبر الأسود، في رأس هذا الصباح؟

دلال

الرواية الثانية ...

آه.. قالت عدولة

ليتني وضعت رأسي بين شواهد الحجر وتراب المنحدرات

ونمت الى الأبد، على أن أكون ابنة الباشاوات والسادة والامراء

مضت ثلاثة أيام بلياليها

وأنا لم أتكئ على سرير أو فراش

أقدامي تورمت، من الأصابع حتى نهاية الجوزتين

كأنها متقرحة ومرضوضة

لست أدري أمن ثقل الخلاخيل

أم من أجراس ديار بكر، الناعمة، المعلقة بها.

عنقي محني من منبت حنجرتي حتى نهايات الأقراط المتدلية

من أذنيّ، نحلت كتفاي من حمل " السفرات " والصواني

كنت أقول يا أبتي، فلنستنجد بخمسين ألف بيت " شنكالي "[1]

نستنجد بأوجاق[2] الآباء، مهد الآديين ومزارات القديسين

ليلبوا نداءات والدي، ويخلصوا خيمته الواسعة من حصاد

السيوف حتى لا يرفع الذي مثل عافري الغيسي، وجيل

ابراهيم التركي، راياتهم على تخومنا

آه ... يا أماه

ليتني لم أذهب الى خيمة عفدي الشرقي

---

(١) نسبة الى جبل شنكال.

(٢) هنا بمعنى أسلاف أوقدامى الأجداد.

ولم أقل، أيها الحبيب دلال تفضل الى المضافات
إني أستضيفك

★ ★ ★

طرحت أرضاً ثلاثة أرائم في مناسبة حضور دلال
واحدة له، واثنتان للأصدقاء والأحبة
وجلست الى جواره، جنبي الى جنبه
ودخلت معه كل متاهات الحب
واجتازت يده تخوم صدري، عابرة عقود الذهب والمرجان
وأطواق العقيق والأحجار الكريمة
دخلت معه المتاهات وأحاديث الحب
وأشياء القلب وشؤونه

★ ★ ★

آه يادلال، آه
أنا التي كان عليّ أن أموت قبل الكارثة
أنا المفروطة العقد، المكسورة العنق
أنا التي بلا سلفة أو حماة
سأقول آه في قدوم دلال
في ارتجاله سأقول آه
حين وصل دلال دار الباشا المللي
خرجت إليه بكامل زينتي وهيئتي الكرمانجية
تبرجت، وتزينت كصبايا مدينتنا أورفة
وحملت الفنجان الفرافري، وضعته على ظرف فضي
وصينية ذهبية وقدمت القهوة اليمنية لحبيبي
على كفي المحناة وأصابعي العسلية

ومع القهوة اليمنية، فتحت له تخوم صدري الملتهب

أو اه يا أماه

لقد مضى مع اثني عشر فارساً من فرساننا

اتجهوا صوب سهل " بوسيليلانة "

لقد هجرني الصبر، ونفدت قدرتي على الانتظار

لا أطيق الوحدة بعده

آه...

رأيت الناس مرتبكين، والخيم كأنها مهجورة

كل العجائز والمسنين اعتكفوا مع الصبايا والعرائس

اللواتي خرجن من وراء الستائر والبرادي

كانت أعمدة الغبار تتصاعد من خيم البراري الجنوبية

وهناك من قال، لعلها اسطبلات البازارات الموسمية قامت

والبعض قال، لعلها سبي واجتياح

ومنهم من قال، إنها قافلة تمر، أو قطار الإبل وقطيع الغنم

ومنهم من قال، إنها معركة الترك والغيسين

تدعمهما الدولة العثمانية

أية بلية أخرى، جاؤوا بها علينا كعادتهم؟

فحملت " الدربيل " ، أنظر الى الجنوب

رأيت ثلة من فرساننا

أو لهم كان عليكي مستي، مشمراً زنوده حتى المرفقين

يبدوأمامه رمح النزال

لقد أشعل النار في قلبي، وأحرق كبدي هذا المشهد

إن المعركة لحامية إذاً، وثقيلة

الكهل السبعيني يتقدم شبابنا وفتياننا الفرسان

الفارس الثاني كان " كاكيه شيخي " ند ونظير أشجع أبطال

ومصارعي الدولة العثمانية

الثالث كان بوظان

الرابع سليمان

والخامس كان الشقيق سعدون " شقيق عدولة "

السادس كان فارس ملاي، بطل ذوصيت كبير

السابع كان جيلوالايزولي

الوحيد على سبع شقيقات ينتظرنه

إنه نجمتهن الوحيدة في هذه الدنيا

وصديق حميم لفارسنا المقدام درويشي عفدي

من الروح الى الروح

الفارس الثامن كان كركر المللي، والتاسع مستي فرحي

العاشر كان علي ديلي " كاكيه كرخيه "

فارس سهول منطقة سرويجة

الفارس الحادي عشر كان معمي تمي

الثاني عشر كان أو يسب الفارس الذي لا سيف له ولا ترس

إنه كاتب سيرة الحروب ووقائعها

حين لم أر دلال بين الفرسان يا أماه

صدقت مقتله

* * *

عاد الفرسان الى بيوتهم وذويهم

وتعالت زغاريد الصبايا والعرائس

تعالت أصوات الفرح

ونزعت الشارات السوداء عن الخيم

واستبدلت بشارات خضراء وحمراء وصفراء

استعرت النار في داخلي

هكذا إذاً لا أحد يبالي بسواه

لا أحد لأحد هنا
كأن دلال غريب عن هؤلاء القوم
لهم الأفراح، فليفرحوا
وأنا لي الحداد وأحزان الترقب

⋆ ⋆ ⋆

حملت نفسي، ومضيت الى الشقيق سعدون
استفسره فقال
لا تبالي يا عدولة، كوني مطمئنة
إن دلال حي، على قيد الحياة
مازال يتعقب جند الغيسيين وفرسان الترك
ويلاحقهم في سهل " بوسيليلانه "
وفي منتصف الليل سيعود الى الأهل والأحبة
ليودع أمه العجوز، ووالده عفدي الشرقي
وجموع اليزيديين وبعدها، سيأتي
مودعاً انسياب الضفائر المحتاة على كتفيك
فعهدنا نحن الفرسان، نقضي حياتنا في ساحات
الرجال والنزالات الكبرى
في سهول " باقيل خضر "
آه... يا عدية
إن البشرى لثقيلة.. ثقيلة

⋆ ⋆ ⋆

سأقول آه.. في قدوم دلال
في ارتجاله سأقول آه حين في منتصف الليل
تكاثر الهمس بين أصدقائه الفرسان

وانتشر الغمز والنظرات المعبرة
كان صهيل الهدمان يخترق الريح وأركان خيمة والدي
التي لم تتسع لدويّ الصهيل
الصهيل الذي كأنه بروق الشتاء الهائجة
لم تتسع خيمة والدي الكبيرة لصهيل حصان دلال

★ ★ ★

كل الوصيفات واللوامات، عتبن عليّ
وتناقلوا القول
بأن عدولة، بعد دلال كانت هائجة مضطربة
كأنها أصيبت بمس جنّي
قلت لهم، أيها اللوامون، لا تلوموني، ولا تعتبوا
لقد كان رحيل دلال مؤلماً
حتى أن رئتاي كانت تذوبان من الاحتراق
حين وصل دلال الى ديوان الباشا المللي
صعدت الى المضافة وقلت أيها المسافر
منذ المساء والقهوة اليمنية تحترق على نارها
منتظرة قدومك
لأجلك القهوة كانت تفور وتحترق
حملت الفنجان الفرافري ذا الصحن الذهبي
بيدي المحنّاتين، أخذته إليه
قدمت القهوة لحبيبي بأصابعي العسلية
لست أدري إن كان الخفر أخذني
أم أن العشق أمسك بروحي
أو أني تعثرت بحذاء دلال
حين وجدت نفسي أهتز وأرتجف

ازداد اضطرابي وتصاعد توتري
فاندلقت القهوة من بين يديّ، متناثرة على الشارة الرويسية
وعباءة دلال بيت والدي

★ ★ ★

أنا التي كان عليّ أن أموت، يوماً قبل الأوان
أنا المفروطة العقد، المكسورة العنق، آه..
اثنا عشر فارساً من فرساننا سيذهبون الى النزال مع ألف
وسبعمائة فارس من فرسان الترك والغيسيين
وفي حمى المعركة، حين يتجندل الفرسان من صهوات جيادهم
ويتصاعد صليل السيوف وضجيج التروس
خوفي من أن يعتب أصدقاء دلال عليه
ويعيروه ببقع القهوة على عباءته
اصطحبت احدى وأربعين فتاة من فتياتنا المليات
وسبعة ليترات[1] من صابون بغداد
واتجهت الى نهر مورات الجامح، الذي لا ينضب
وهناك بدأت الغسيل
كما تغسل البياضات من الألبسة
كنت ألاعب ثياب حبيبي
وأقضي همومي معها دون جدوى
لم أقدر أن أنظف ثياب دلال من بقع القهوة
حملت نفسي، وقلت سأتجه الى نبع " أويدي "
الذي ماؤه شفاف كدمع العين
وعاودنا الغسيل مرات ومرات

---

(١) ليتر: واحدة وزن تقدر بثلاثة كيلوغرامات وربع.

هدّ التعب كل الصبايا، وكاد أن ينضب ماء النبع الذي تعكر
ونفذ الصابون الذي كان معنا
دون أن تزول بقع القهوة من عباءة حبيبي
التي تلطخت بما فعلتْ يداي
وأخذت البقع تتكشف وتتسع
يا لخيبتي...

★ ★ ★

من بين كل القلوب، قلبي دير يا أماه
مرة أخرى
مضى فرساننا الى سهولنا الجنوبية
فلتشرق شمس مبشرة بالخير
تغطي شعاعاتها قمم جبل " شنكال " وسفوحه
موطن الفارس ومكان اقامته
وسهول بوسيليلانه، مرقد الإبل والمواشي الأليفة
ولتضرب شعاعاتها جدار قلعة ماردين ورويلية
كاشفة صخور القلاع والحصون
عابرة الى تلال " ويران شهر " مقر اقامة أبي مسلم الطبري
ضاربة مدينة السليمانية، عاصمة الحاكم، مقر رستم، الجد.
لو أن تبليغاً وصل الى الناس، وجاؤوا يقولون لي
إن دلال قادم من سهولنا الجنوبية
لحملت نفسي الى طريقه، منتظرة وصوله
لرأيت ثلاثة فرسان مسرعين
واضعين الركاب على الركاب في صف واحد
ولعرفتهم من ركوبهم
أو لهم دلال
والثاني علي السنجاري

والثالث درويش ابن شقيقة طيار
ولسمعت أنّات الهدمان تحت دلال
الذي سيكون متجهماً
وقدومه مبشراً بالخير يا أمي
ولمددت احدى يديّ الى رأس الهدبان
والأخرى الى دلال
مشيرة إليه، ترجّل أيها الفارس

* * *

آه يا دلال
لن أستعيض عنك بأحمدي بشير أو عليكي سيوير
أو حسني زيبير لن أستعيض عنك بحمي مويسكي
الذي كان ينازل الحكم العثماني
ويقول له أيها الكافر ماذا تريد من الناس وذريتهم؟
لن أستعيض عنك بوالدي زور تمر باشا المللي
الذي لم يدفع منذ سنوات
قرشاً واحداً من أمواله للخزينة
ضريبة أو خراجاً أو اتاوة
والذي يقوم على رعاية ألف وخمسمائة فتى من شبان الكيكيين والمللين
ويغدق عليهم بلحوم الضان وأرز " قراج داغ "
آه ... يا أماه
ان دلالي، هو سليل عفدي الشرقي
عفدي الشرقي الذي وضع تحت ظل رمحه
كل الأرض الممتدة من تخوم صالح سيد آغا الكردي
وسهل بوسيليلانه حتى تخوم الغيسيين
الى جهة " عبد العزيز " تخوم حيدر وجبر

ثلاث وثلاثون سنة، قضاها في الحروب والوقائع
في المعارك والنزالات
ولم يحن رأسه أمام أحد من الغيسيين أو الترك

* * *

حين سيترجل دلال
سأهبه قبلة من استدارة عنقي
وأغمر فمه بحرارة وجهي
وبعدها، سأعد له فراش " بورصة "[1]
وأمد الشرشف الخراساني عليه
وأقول تفضل أيها الضيف بالجلوس
سألف له سيجارة من تبغ " موش "[2]
وأضعها بين أصابعه
سأتناول بأصابعي الصفراء الزيتونية
جمرة ملتهبة، لأشعل له السيجارة
سأصيح، آخ يا دلال
احترقت أصابعي
دون أن يقول دلال بيت والدي
ماذا بك يا عدولة

* * *

شديد صيفنا، هائج شتاؤنا
وخريفنا منهمر ربيعنا طيب وافر ياحبيبي
فلتجيء، وتمسكني من جدائلي

---

(١) اسم مدينة.
(٢) نسبة الى مدينة موش.

وتشدني الى جنبك على الهدبان

وليسرح على قمم جبل " بيزيد "

على ضفاف الأنهار والسواقي

ليسرح فرحاً هدبانك

وليقولوا في الاحدى والثمانين عشيرة كردية

اليوم، عدولة بنت الباشا المللي

صار لها بعل تحت خيمة عفدي الشرقي

وقتها، فليحملوا لأجلي، بدلاً من عدة العرس وأشياء العروس

ليحملوا فأساً ورفشاً، وليسخنوا لي ماء الموتى

أمام ديوان الباشا المللي

لأضع رأسي في مقبرة " شنكالنا " الجنوبي

يوماً قبل الأوان

آه يا دلال

لتكن لك الجبال

ولي المرتفعات وهضبات الطبيعة

ليت الله استجاب لمراد الجميع

واستجاب لمرادي ومراد دلال

وبعدها لا بأس

أن يأتي عزرائيل، ملك الموت

قاصد مالك الفلك

ويأخذ أمانته مني ومن دلال

أيها اللوامون لا تلوموني

إني أتلاشى، أذوب

كلما ضربت عيني على عشيرة المللين

على الهدمان وبياض صدره

أو شراريفه وأجراسه

مشردة أنا، لا بيت لي ولا بعل

لست بيازة علو، ولا فاطومة حمو

أو ليلى بنت خضر

انا ابنة عم او يسبي علي، ابنة الباشا المللي، كاللبؤة أنا

يا أماه

لو أن أحداً لم يذهب مع دلال الى نزال الترك والغيسيين

سأمتطي فرساً أصيلة وعنيفة

وأحمل رمحاً ذا ثلاثة مفاصل

وأربع عشرة فقرة

ولأمت قبل دلال

سأشد ظهره، أنا سنده وقت الشدة

سأدفن كل الجبناء في سهل بوسيليلانه

برمح عفدي الشرقي

★ ★ ★

أموت بآلام دلال

تنتابني البردية والحمى

أقف أمام مرآتي وأدوات الزنية

أروح وأجيء قلقة، أمام ديوان الباشا المللي

أنتظر قدوم دلال

ولا أقطع أملي منه

ليس قلبي فولاذاً، ولا قوساً من حديد

ليس همّ الآخرين إلا مال وممتلكات الدنيا

وأنا همي حمى العشق، واشتعال القلب ياأمي

كان على قمم " قراج داغ " ثلاث خيام منصوبة

احداها خيمة " عمري عدي "

وأخرى خيمة والدي

والثالثة كانت خيمة درويشي عفدي، طالب روحي ويدي

واسعة، يسندها ثمانية عشر عموداً خاوية، كمقبرة العشيرة

ولا أحد هنا يمتلك نخوة أن يشد يدي ويرميني تحتها

لأرى نفسي امرأة وسيدة في خيمة حبيبي

التي هي لي مثل مزار أبي مسلم

لست عليلة، أو سقيمة

لست محمومة، أو مريضة بداء الريح أو السل

أنا مريضة دلال

دلال الشرقي، درويشي عفدي، هو طبيبي وحكيم نفسي

★ ★ ★

من كان سيقول، ومن كان سيسمع

آه...

لو أن مجاعة حدثت

وارتفع كيس القمح الى مائة وعشرين ليرة ذهبية

حينها فليأت دلال على هدمانه الى سهل بوسيليلانه

وليلعب ويتجول حتى التعب

وليأت، ويسترح في بيت والدي

سأمد له بسط ولبادات " قارص"(*) وفراش "بورصة"(*)

وإذا طلب مني طاسة ماء

فسأقدمها إليه وأقف أمامه

ليمد يمناه الى طاسة الماء

ويسراه الى تخوم صدري، ما بين عقود الذهب والمرجان

(*) أسماء مدن.

ولتسمع أصوات ارتطام الصدف الكريمة على الأرض
ورنينها
وبخبث، لكنت تملصت منه قليلاً، وعضضت له شفتي

★ ★ ★

آه...
حين تعبت عيناي في الانتظار، والتبصر في الطرقات
رأيت فارساً قادماً من البراري الجنوبية، شاقاً غبار الطريق
يقال له " حاس عباس " فارس منجولي أزرق الركبة
فحملت مغزلي " الموشي "★ ذا الخطاف الذهبي
واتجهت الى معبر طريقه وقلت:
أيها الفارس، إن قلبي لمجنون مجنون
جريح من الجراحات
متلوع من الحسرات، مهموم من الهموم
لقد تقيحت جراحاتي كلها، مضت ثلاثة أيام بلياليها
وعدولة باشا المللي، تصرخ وتنوح
الأرض تسمع والسماء ترفع
لأن دلال لم يعد من خيم البراري الجنوبية
ولا تدري أهو حي أم جريح
فبشرني بشراه أيها الفارس
قال الفارس:
أيتها العروس، إنهم لكثر، هؤلاء الذين يقال لهم
" دلال " في سهل بوسيليلانه، إنهم " دلالو الدلالات "[1]
كثيرات هن، اللواتي ينتظرن، كل منها دلالها

---

(١) جمع المذكر والمؤنث من دلال.

هناك دلالون، شلت أرجلهم وأيديهم

وآخرون، فروا عبر المضائق والممرات

ومنهم جراحاتهم بعمق أربعة أصابع

وهناك دلالون، على مر ثلاثة أيام بلياليها لم ينزعوا درعهم

ولم يلقوا سلاحهم، فقولي أوصاف دلال الذي تقصدينه

قالت عدولة:

آه، أيها الفارس

أوصاف دلالي بيّنة وجلية

يرتدي ثوباً ملصياً(*)، ودرعاً داووديا

عباءة عساوية*، كاشفة اللون

أزرار قميصه فولاذية، يضع زناراً مكاوياً(*)

وشرواله مقلم، على رأسه شار رويسي(*)

مقطب في الوسط، خيوطه مغزولة بأيدي أربعين فتاة مللية

شاربه حنائي غامق كريش اليمام، مفتول على خديه

شاربه سوسني داكن بحناء أو رفة المحروقة

" هدبانه " جامح، جنباه غزاليتان، حافراه مقلّمان

وسرجه مزين بالشناشيل والشراريف

سرجه " أرضرومي " ، وركابه برونزي

سيف دلال عنيف لمّاع

ورمحه فتاك، مزين بضفائر ثلاث حسناوات

قال الفارس:

أيتها العروس، إن الفارس الذي تقصدينه هو سليل عفدي الشرقي

إنه درويشي عفدي، حامل السم الزعاف والكأس الملطخة بالدم

كاسر هيبة الفرسان

(*) نسبة الى مدن ومناطق.

وإن حصيت الجرحى والقتلى في سهول بوسيليلانه
فتأكدي أن نصفيهم من صنع يديه
كم من عروس ترملت، بما فعلت يداه
وعادت إلى بيت ذويها! وكم من نار أطفئت
نصبنا له حيلة، وجعلناه يختار النزال في أرض مليئة
بأوكار الجرذان وجحور الفئران
فتكسرت قائمتا حصانه الأماميتان، وتجندل أرضاً
إن دلال الذي تقصدينه جعلناه يتجندل في المعمعان
فلتذهبي إلى الميدان، وتري بنفسك، حال دلالك
رميت المغزل الموشي ذا الخطاف الذهبي
واتجهت جنوباً إلى سهل بوسيليلانه
وحين وصلت هضبة " الايزوليين "
وعبرت ميدان الفرسان وتخومهم
رأيت دلالي جريحاً
وقد تفرق فرسان الترك أمام فرساننا
وعافر الغيسي مطروح تحت رمح الشقيق سعدون
آه يا أماه
منذ الصغر، وأنا أعرف هؤلاء " الشرقيين "
إنهم فرسان ذوورماح فتاكة
منذ أيام " معمي " و" عفدي " وكل أسلافهم
حتى الآن لم يحنوا رأسهم أمام أحد
في كل الحروب والوقائع
في كل المعارك الضارية، ما كانوا يعودون خائبين
اليوم فقط، بحيلة نكراء، بجعل دلال ينازلهم في أرض
جحور الفئران قطعوا الفرصة أمامه، وأصابوه في مقتله
لقد رأيته في جراحه

ستة منها كانت مضمدة قبل يوم أو يومين من مقتله
شاربه مكسور على شفتيه وكأنه أدرك الحيلة متأخراً
في منتصف صدره كان جرح عميق ونازف
كانت بقع الدم الكثيفة تغطي درعه وعباءته
حين مددت يدي إلى جراحه، كانت طعنة حاقد أعمى
عرفت أن الذي طعنه، حاقد من أعماقه، على فارسنا

★ ★ ★

آه..
قم، أيها الحبيب دلال، أنا هنا، فلتقم
قامتي عروسية
لأجلك يا حبيبي قامتي عروسية
جبيني ناصع وضاء
حواجبي دقيقة، رموشي سوداء فاحمة
عيناي حوراوان، مكحلتان لأجلك
وجهي وردي
خداي تفاحتان من تفاح " خلاتيه " ، بيضاوان وحمراوان
أنفي دقيق وناعم كمنقار طير مائي، مثقل بخزام ذهبي
شفتاي رقيقتان كورق الورد
حنجرتي ناحلة، كقنينة عطر تذكاري
ذقني ملساء، كملعقة " شمشيت "[1] في مدينة الشام
حين توضع في ماء الحناء
قرطا أذنيّ، ذهبيان، متدليان حتى نهايات عنقي
مصنوعان بيد المعلمين والصاغة المهرة

---

(١) الجمشت.

في مدينة ديار بكر المحروقة
زناري فضي مزين بالمرايا
حلمتاي مخبأتان في تخوم صدري، كحبات رمان " ملاطية "
على رأسي شال " كسروانية " مزينة بالشناشيل اللعوبة
ضفيرتاي بنيتان، لأجلك تلوحان في الريح يا دلال
أنا يمامة " شنكال " الشمالي
بطة الخابور الجنوبي، اوزة الفرات الهدّار
ابنة الباشا المللي
على أرض الدنيا كلها، لست لائقة لأحد
لست لائقة بابن عمي أو يسبي علي
ولا بمحوباشا ذي الركاب الذهبي
لست لائقة بكل فرسان المللیين
ولا ببلال ذي الرمح، أو مستي الجلخي
لست لائقة بعافر الغيسي أو جيل ابراهيم التركي
ما أنا لائقة إلا بابن عفدي الشرقي
لشارب دلال السوسني الغامق
وبعد دلال
أنا لائقة لمقبرة " شنكال " المحروقة
للقبر المدلهم المظلم

★ ★ ★

فلأمت يا حبيبي
بعدك لن أدير شؤون بيت أحد
لن أعد القهوة اليمنية لأحد
ولن أحملها في ديوان الباشا المللي الى أحد
عهداً، إني لن أحقق مراد أحد معي

ولن أزين قامتي العروسية لأحد

ولن أنوح على مهد أو سرير طفل ذات يوم

سأصعد قمم الجبال، وصخور المنحدرات

وأنده دلال وأنوح

سأجوب البراري وأقول دلال

وأصدح ملء صوتي، مع دموعي الدامية

سأقول دلال، عهداً لن أفتح لأحد أزرار صدري الشامية

★ ★ ★

آه ...

سأبقى أقول دلال، يا ضيف بيت والدي

سأصعد الأماكن الوعرة، والجبال العالية

وحين ستطير اليمامات وأسراب الحجل

سأقول دلال

مع صوت أساور يديّ، ورنينها، حين ألوح بهما

سأقول دلال

مع أصوات المؤذنين وتكبيراتهم

وصفير الرعاة وأصواتهم في الجبال والبراري

سأقول دلال

وأنده ملء صوتي دلال

بعدك لا أريد الحياة، ولأمت

سأضع رأسي على شاهدة حجرية

وأصبح ضيفة وعروسة الفرسان

ملحمة دلال مناحة قاسية لإنكسار العشق والشهامة في خاصرة الانسان أمام سطوة الواقع وحيلة البشر. وقد توغلت في الذاكرة الاجتماعية الكردية وباتت على لسان غالبية المغنين الشعبيين وكبار الفنانين والموسيقين الأكراد وعلى رأسهم الفنان الراحل محمد عارف جزراوي أحد أبرز تعبيرات جنون عبقرية الطبيعة الكردستانية في بعدها الغنائي الخلاق.

من جهة ثانية، ومن خلال بحثي في اعداد ملحمة دلال، تعرفت الى أمور عديدة تتعلق بحكاية درويشي عفدي، ومن هذه الأمور:

١- إن الغزو المشار إليه على عشيرة Milliyan قد حدث بالفعل وذلك بسبب نزاع على الاستفادة من آبار الماء التي كانت تحت سيطرة المللیين، وأن أزمة المياه دفعت الأتراك والعرب في تلك المنطقة للتفكير في القضاء على زعامة عشيرة Milliyan التي كانت أحد زعمائها في عقود سابقة للواقعة تلك، وقد حصل على لقب " باشا " من أحد سلاطين الدولة العثمانية، وظل أبناء العشيرة يتفاخرون بذلك، ويتداولون هذا اللقب فيما بينهم، وحتى في مخاطبتهم وعلاقاتهم بجيرانهم من العشائر الاخرى – رغم زوال السلطة الفعلية للباشا الذي لم يعد باشا في عهود السلاطين الآخرين – الأمر الذي كان يثير غيرة وحساسية جيرانهم باستمرار، ومع ترافقه بأزمة المياه وشح مصادره حدثت المعركة الدامية.

٢- إن عشائر كردية أخرى مجاورة لعشيرة Milliyan دخلت المعركة لصد الغزو، ومنها بشكل خاص عشيرة Kitkan القاطنة حتى الآن في منطقة عين العرب شمال سورية ويعيش قسم منها في مناطق اخرى، وكان زعيمهم حمي مويسكي الذي ورد ذكره على لسان عدولة في ملحمة دلال، وقد كان فارساً ذائع الصيت، ويقال أنه كانت له مضافة في مدينة حلب السورية، وأن الحي المعروف حتى الآن في حلب القديمة بـ " Ag yol " وهي كلمة تركية تعني " طريق الآغا ". وكانت في هذا الحي الطريق التي تؤدي الى مضافته.

وقد تم تنفيذ حكم الإعدام فيه بأمر من السلطان العثماني وقتها لمخالفته أوامره ورفض دفع الخراج والضرائب وعصيانه على السلطة. وأعدم عند الجدار الخارجي لجامع باب الحديد الموجود حتى الآن في حي باب الحديد في مدينة حلب، وقد قمت بزيارة خاصة الى ذلك الجامع وتأكدت من وجوده ومن الأوصاف التي كنت قد سمعتها من قبل من عدد من الرواة الشعبيين.

وروي لي أيضاً أن عملية اعدامه تمت عن طريق دق مسامير حديدية طويلة في جسمه على جدار الجامع، حتى أنهم يقولون أنه سمّر من أذنيه، ومهما يكن من أمر فإن حمي مويسكي معروف تماماً كزعيم لعشيرة كيتكان وساند المللليين في محنتهم ودخل المعركة وقاتل فيها ببسالة شديدة كأحد أبرز فرسان الميدان.

٣- إن عدداً من الروايات تختلف حول والد عدولة ومن يكون هو؟، فعند اعدادي للحمة دلال ذكرت في مقدمة ترجمتها العربية أنه زور تمر باشا، كما سمعته من أفواه عدد من الرواة الشعبيين في قرى منطقة عفرين، هذا رغم أني سمعت روايات اخرى تقول بأن والدها كان اسكان باشا.

وفي جلسة ضمتني مع د. محمد عبدوالنجاري وهو كاتب كردي ومترجم في الأدب والفولكلور، وكذلك د. عبد المجيد شيخومترجم وصحافي كردي، والأستاذ فؤاد عليكوأمين عام أحد الأحزاب السياسية الكردية في سورية، وكان وقتها عضواً في مجلس الشعب السوري " البرلمان " وذلك عام ١٩٩١ في منزل د. النجاري في دمشق وأثناء الحديث عن دلال أصر الاستاذ عليكوعلى أن عدولة هي ابنة إبراهيم باشا وكانت حجته أنه يعرف عائلة الباشا عن كثب كونه هو من بلدة قريبة من بلدتهم، وأنه سمعها من أحدهم.

ومن جهة نظري الشخصية أن ذلك قد يكون صحيحاً قياساً على واقعية الحكاية، ولكني أعددت دلال كما هو معروف في قرى منطقة عفرين، وليس من حقي التصرف بمحتوى النص الفولكلوري أو القيام بتعديله أو تصحيحه، وتحويل عدولة ابنة لإبراهيم باشا.

هذا ناهيك عن احتمال وقوع عدد من أفراد عائلة الباشا في الخطأ عند تناولهم لتسلسل فروع شجرة عائلتهم الى جانب ظاهرة أن كل من يعرف شيئاً عن الحكايات الفولكلورية يبدي اصراراً متطرفاً على صوابية ما يرويه وخطأ الروايات الاخرى، وهذا ما أرفضه تماماً، لأنني مقتنع بأن التنوع والتعدد في الروايات حول أية حكاية، هو انعكاش للغنى والثراء الفولكلوري ودليل على سعة الخيال والذاكرة الشعبية، كونه أيضاً واحدة من ميزات وسمات الفولكلور.

وفي المقابل أستطيع القول بأن زور تمر باشا هو الذي نال بالفعل لقب الباشا، والزعماء الآخرين الذي جاؤوا بعده مثل إبراهيم باشا واسكان باشا، احتفظوا باللقب بصورة معنوية كونهم ورثوه عن سلفهم، وهذا قد يفيد في تفسير أن عدولة ابنة زور تمر باشا، هو كذلك أمر مجازي يقصد به أنها حفيدته أو سليلته وهذا جائزتماماً، ويحصل في الحياة الكردية أن يقال عن شخص أو عدة أشخاص بأنه أو أنهم أبناء فلان، وذلك نسبة الى أحد أجدادهم.

٤- لمست ميلا ً شديداً لدى أبناء الطائفة اليزيدية (الزرادشتية) في محاولة تضخيم شأن درويش وعائلته كونهم من طائفتهم والمبالغة في سرد مآثرهم وبطولاتهم مقابل الحط من شأن المللليين ونعتهم بالجبن وفقدان البسالة وما الى ذلك من أوصاف مستهجنة، الأمر الذي يعكس تناقضاً طائفياً صريحاً بين المللليين المسلمين وعائلة درويش اليزيدية، وقد يكون هذا أحد الأسباب الأساسية – وربما السبب الوحيد – في عدم الوفاء تجاه عفدي ملحم في تزويجه من رحمة عمّة عدولة، وبالطبع الى جانب الفروق في المرتبة الاجتماعية.

ولا شك بأن التناقض الطائفي المذكور لا يقلل من بسالة وفروسية درويش وعائلته، ولكنه لا يمكن القبول به سبباً للحط من شأن عشيرة تعرضت لغزو مخطط له، خاصة وأنه لم يقف حائلا ً أمام تحالف درويش معها، وأن التفاخر بالقوة الفروسية واستعراض الشجاعة وابراز النخوة والمروءة والبسالة الشخصية كانت جزءاً هاماً من العقلية الاجتماعية السائدة ونظام القيم والاعتبارات العامة في ذلك الزمن. ونلمس هذا بوضوح في نص دلال عند حديث عدولة عن المعركة فهناك اشارات

صريحة الى بسالة الفرسان وشجاعتهم، وإن كان هناك ميل الى تقزيم الخصم والحط من شأنه، فهذا يجري حتى في الحروب الحديثة.

٥- لمست أثناء عملي أن هناك اتجاهاً نحوالأدلجة السياسية المباشرة لملحمة دلال على أنها فصل من فصول الصراع القومي الكردي، ومن وجهة نظري أن دلال كبطل وكملحمة، كردياً تماماً، ابن الحياة الكردية وبيئتها لاجتماعية في فترة تاريخية محددة، والأمر لا يحتاج الى التأكيد من خلال خطاب سياسي معاصر، أو رغبة سياسية- ايديولوجية معاصرة، ولا يحتاج الى أية اسقاطات مهما كانت نوعها لتأكيد طابعها القومي.

فالبعد القومي طاغٍ في دلال وفي فصول المعركة ذاتها، ولكن بالقياس على حالة تشكيلة اجتماعية عشائرية لم تحقق بعد نموها – في ذلك الزمن – لبلوغ حالة من الوعي الاجتماعي القومي، وإن كانت العديد من عناصر ذلك الوعي متوفرة ومتداولة بصورة عملية فيها.

وبصورة أكثر تحديداً يمكن القول بأن الحكايات والأقاصيص الفولكلورية هي حاملة تاريخ أو مراحل تاريخية، وهي لوحات وصور حياة اجتماعية بمختلف عناصرها من تناقضات وصراعات وحروب، وهي في حالتها الكردية تحمل وجهها الخاص، الراغب في الدفاع عن ذاته وبقائه آمناً، ولا تحتمل اسقاطات سياسية مباشرة – مهما كانت نوايا هذه الاسقاطات نبيلة – فالتراث الفولكلوري هو نتاج مراحل تاريخية عاشتها جموع غفيرة من الناس وساهمت في انتاجه، وأضفت عليه ملامحها وسمات عصورها وطبائعها، مما يجعله بعيداً ومستقلاً الى حد كبير عن غاية ايديولوجية أو سياسية محددة.

وإذا كان معروفاً عن الفولكلور بصورة عامة – والكردي منه بالطبع – أن الخيال يمتزج بالواقع أو يصبح واقعاً معاشاً وكذلك يمكن للواقع أن يتحول الى خيال يتفاعل مع ذاته ويخلق عالمه وحالته الخاصة به، فإنه من المؤكد أيضاً أن معادلة الرغبة الاجتماعية والحياة، تدفع بالخيال الشعبي الى الخروج عن اطار المعطيات والمجريات الواقعية للحكاية، وبذلك يكون قد أضاف واقعاً جديداً فوق واقعه الأصلي أو الى جواره، وليس من المنطقي انكار أو إدانة أو رفض ذلك الواقع، لأنه يكون قد

تكوّن وعاش ومضى زمنه وبات جزءاً من التراث التاريخي الذي لا يطلب دائماً القبول بكل أشيائه أو نتائجة.

كل هذا على الرغم من أن حكاية درويشي عفدي ودلال، وغيرهما، كانت بشكل من الأشكال وسيلة للتعبير عن الهوية الاجتماعية الخاصة، بكل ما تحتمل كلمة الخصوصية هنا من معنى، ولكن على ضوء الظروف التاريخية التي ولّدتها، لذلك تحتمل بأن تكون شكلاً من أشكال الوعي القومي البدائي وانعكاساً له.

إن كردية ملحمة درويشس عفدي ودلال حاضرة وموجودة في بنية النص ومتونه، وهي وثيقة تاريخية دامغة على استقلالية الوجود الاجتماعي الكردي وهويته المميزة، وتعتبر أثراً شامخاً من آثار الحضارة الكردية لا يقل أهمية أو معنى عن تماثيل الرومان على سبيل المثال، وإذا كان الشعب الكردي قد افتخر طويلاً بذلك الجزء التعبيري من حضارته باعتزاز حار فإن ذلك ومن دون شك تعبير عن الرغبة الاجتماعية الكردية في ممارسة استقلاليتها وتحقيق ذاتها في اطار حقها الطبيعي في الوجود والارتقاء.

وتؤكد هذا جميع الروايات المختلفة عن الحكاية الواحدة وإن التناقض بين هذه الروايات هي تناقضات الحياة الكردية وتجد معناها ومبرراتها في قاموس طبيعة الحياة البشرية على مختلف ألوانها.

٦- لقد عملت على تقديم روايتين لملحمة دلال، الاولى اعتماداً على المغني الشعبي الكبير رشيد مم جۆجان الذي يعيش في منطقة عفرين وكان ما يزال على قيد الحياة حتى صدور دلال مطبوعاً وهو أحد أبرز المغنين المتخصصين في رواية وغناء الملاحم والحكايات الفولكلورية الكردية باسلوب شعري مقفّى، وبأداء ابداعي بارع.

أما الرواية الثانية التي قدمتها فكانت من غناء المغني أبوصلاح الذي أعدها بالاشتراك مع الفرقة الفنية الكردية المعروفة باسم Koma Armanj في كردستان سورية، وذلك بالاعتماد على غناء وروايات عدد من شيوخ الغناء الشعبي الكردي مثل Ibrame Tuko - Has Nazî - Hamushe Kurik - Jamile Kare -

Jamil Horo - Omare Jamlo - Rashide Mam chuchane - Avde Share وآخرين.

ووفق مصادرهم ومصادر أخرى أيضاً علمت ومن خلال النص أيضاً أن أحداث الحكاية جرت قبل أكثر من مئتي سنة من الآن أي في حوالي النصف الثاني من القرن الثامن عشر،وذلك في منطقة بوطان – نصيبين في سهل بوسيليلانه، وأن درويش هو ابن عفدي ملحم ابن معمي ابن بيان من منطقة بيركال في جبل سنجار، وهي عائلة زرادشتية، وأن المعركة الدامية التي تسببت في مصرع درويش وهو في ريعان شبابه قد حدثت بين العشائر الكردية من جهة والعثمانيين والقيسيين (المقصود العرب) من جهة ثانية، وأن حب درويش لعدولة كان وراء اشتراكه فيها بحماس كبير.

وهناك رواية اخرى عن درويشي عفدي، غناها ورواها المغني وعازف الطنبور بيتاز المعروف في منطقة عفرين، ولم يتم اعدادها كتابياً حتى الآن، وهي تسلط بعض الضوء على شكل من أشكل تعامل الخيال الشعبي مع الحكاية الواقعية، ويسعدني أن أعدها وأقدمها للقراء.

ورغم سذاجة هذه الرواية وايجازها وسيطرة الخيال الشعبي بأكثر أشكاله بساطة وبدائية، فإنها لا تقلل كما أعتقد من أهمية الروايات الأكثر انتشاراً ومصداقية عن درويشي عفدي ولا تقلل كذلك من القيمة التاريخية لها ولأحداثها، بل على العكس ربما تضيف شيئاً آخر إليها تزيدها ثراءً وسعةً وغنى.

وعلى أية حال فإنها تبقى اجتهاداً من اجتهادات الخيال الشعبي الذي أرهقه القهر وشروط الحياة القاسية ومفارقات التاريخ الظالم وأحكامه غير العادلة. إنها أنماط تصورات وعادات وتقاليد وحياة اجتماعية، ما زالت تشكل جزءاً – ولو صغيراً – من بنية الوجود الانساني على الأرض.

تقول الأغنية الروائية:

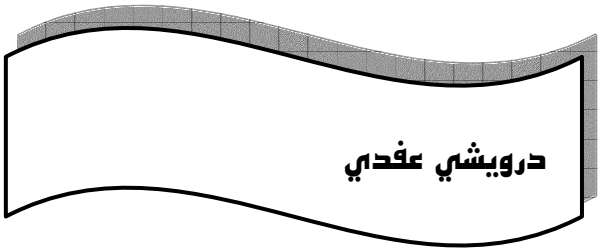

بشكلها الخيالي كما رواها بيتاز

أيها الأخوة، في ربوع جبل سنجار، معقل النزاعات والحروب والفرسان من وطننا، نحن الأكراد، سنسرد حكاية درويشي عفدي وعدولة ابنة المللليين، ابنة الأكراد، خطيبة درويش، الذين لم يلتقيا بعد، فقد كانا جنينين في بطن أمهاتهما، وتواعد أبواهما على إن كان مولود أحدهما ذكراً والآخر انثى، فسيزوجانهما لبعضهما البعض.

وعلى ذلك أقسما أغلظ الأيمان وتبادلا وعود الشرف. وبينما هما في المهد، علّمت مراجيحهما بسبع علامات كدليل على العهد في زواجهما لبعض.

سنأتي على سرد حكاية درويش، فارس الهدبان، الذي حدواته تزن أرطالاً ومساميرها أوقيات.

الفارس الذي عندما كان يتهيأ لامتطائه، كان صهيله يدويّ في خمس وأربعين خيمة من خيم الأكراد في ربوع جبل سنجار، وكان صداه يتردد وينتشر على مدى شهر وشهرين.

درويش يريد زيارة عدولة ضيفاً لأول مرة.

مراجيحهما منذ الطفولة، ما تزال معلّمة بسبع علامات، وهذا تأكيد على الوفاء بالعهد، ولذلك فإن ماتت عدولة فهي من نصيب تراب الأرض وإن عاشت فهي من نصيب درويش، لا ينكث العهد في هكذا أحوال

آه... فليصبح سنجار خالياً، الذي منذ الأزل هو معقل الفرسان والأشقياء.

فلتمسيا خاليتين موصل وبغداد اللواتي منذ الأزل سهولهما مقفرة ومقابر للغرباء.

آه ... إن قلبي متحسّر يتمايل في حجرته

فلتمسيا خاليتين موصل وديار بكر اللتان منذ الأزل ساحاتا مشانق لنا – نحن الأكراد – وميادين شنق الرجال والفرسان المحكومين.

وبعد ذلك، فلتمسيا خاليتين موصل وديار بكر الراقدتين عند سفوح االجبال، اللتين منذ الأزل، أصبحتا مركزاً للساسة والقادة والزعماء الأكراد.

آه... إن قلبي حزين في حجرته

فليمسي خالياً جبل اسفانداغ الذي منذ الأزل حاضنة للغيلان والحيتان والأفاعي.

ومن بعد كل ذلك .. يا حسرتي على كردستان، الوطن الذي منذ الأزل موضع حسابات ومخططات ومطامع الدول.

آه.. أيها الفارس ذوالصيت الكبير.

نعم.. لم يكد درويشي عفدي أن يبلغ الثانية عشرة سنة حتى أن استحوذ الكثير من العلوم والفلسفة ومناهج الكتب.

يتأمله والدة عفدي ملحم بيك، زعيم جموع الزرادشتين، ويرى ما عليه درويش من حال، في تحصيل المعارف والعلوم، وهيئة وقيافة، مما لم ير مثيلاً له من ذي قبل حتى في الحلم.

إن ما هو عليه ليختلف حتى عمّا لدى الجن والحوريات وملوك الغيب من صفات وقدرات

آه.. إن قلبي حزين في حجرته

إن عائلة عفدي ملحم مكونة من ثلاثة اخوة.. اثنان منهما عقيمان.

قطعت آمالهما في امتلاك ذرية أو أبناء، وأطفئت نار بيتهما، وهما يقتعدان الأرض، يتسندان حيطان الأسوار حتى أن اهترئت جلبابيهما وامتلأتا بالثقوب من الخلف، وتتدلى منهما أكياس الذهب والفضة كالأجراس.

ويبسطون نفوذهم على ثلاثة أرباع الخمس والأربعين ألف من خيم الأكراد في ربوع سنجار، وبيدهم زمام القرار والأمور.

وكل ما لدى الاخوة الثلاث من ذرية هو درويش ابن عفدي الذي عمره يكاد بلوغ الثانية عشرة سنة.

إن عائلة عفدي ملحم، بإخوتهم الثلاثة، زعماء جموع الزرادشتين في ربوع جبل سنجار، ينحدرون من أصولنا الكردية، ومن صلب الأكراد أباً عن جد.

إنهم، بيوتنا الشرقية الثلاثة

إنهم قد تسندوا الجبال... ومن المستحيل أن تجد في جهات الدنيا الأربع، من يستطيع أن يستل رمحه ويتقدم نحوهم شراً.

وكان يحدث أن يجتمع الاخوة الثلاث ويتأملوا درويش ومنكبيه اللتين كأنما دفة البواخر، وعيناه اللتان تفوقان سحراً وقوة عيون الجن والحوريات وملوك الغيب في الأحلام والمنامات.

آه.. فارس بيت عدولة

يريد أن يحل ضيفاً على بيت أبيها.

ولذلك، فقد دخل القسم الحريمي من البيت ونادى على أمه سلطانة ذات الأصول العريقة وقال:

- أماه ... إن بي لوعة... وقلبي حزين في حجرته

اليوم يا أماه، رأيت حلماً

وحلمي ذاك صريح وبيّن لي

لقد رأيت أني أمتطي طائر " الأويسغرداغ "[1]

وأبلغ السموات السبع

---

(١) يبدوأنه طائر خرافي خارق، لم أستدل على اسمه في العربية.

أقسم بأغلظ الأيمان يا أماه، إن لم يحضر لي والدي جواداً من سلالة كائنات البحر غداً، فسأمتشق عتادي ورماحي وسأدخل مضارب العشيرة وأعيث فيها خراباً وأجتث بذرة ذكورها ورجالها.

صرخت الأم أمام ولدها وهي تشد بضفائرها الحنائية وتعصرها بين كفيها وتلطم وجهها، وتوسلت إليه بأن لا يقول هكذا كلام في مأوى الحريم، وأنها ستخبر والده بطلب ابنه، ولكنها في قرارة نفسها فرحت وقالت لنفسها:

- حقاً إن الأسود تنجب الأشبال

وقالت:

- حسناً يا بني، سأقول لوالدك في الليل على فراش النوم، سأقول له إن درويش يريد جواداً لم يمس أحد صهوته من ذي قبل، ولم ير مثله أحد بأم عينه، وإن لم تحضر له فسيحل الخراب بالعشيرة، إنه غاضب ويبرق ناراً

أشد من صاعقة بروق سبع سموات، وأنه سيلجأ الى أقاصي جبل سنجار

الوعرة، الذي هو منذ الأزل معقل الأشقياء والمحكومين والفرسان.

وهكذا عندما حل المساء واجتمع الزوجان على سرير واحد، تقلبت الأم يمنة ويسرة، وبدت على غير حالتها المعتادة فسألها الزوج:

- ما بك.

أجابت:

- وتسألني ماذا بي؟ إن درويش قد جن جنونه، واحمرت عيناه كقذائف المدافع، إنه يريد منك جواداً لم ير أحد مثله حتى في الخيال، ولم يمس صهوته أحد.

أجابها الزوج:

- حسناً، لا تدعيه يخلق مشكلة أو بلية، غداً سأمتطي " الدكناء "[1] وأتجه جنوباً مهما مادت الأرض تحت قدمي وسأحضره له.

---

(١) اسم فرسه الأصلية.

وعمّ الصباح، فاتجه جنوباً مسافة ستة أشهر من الزمن ذهاباً وإياباً، وبحث هنا وهناك الى أن عثر في مرعى بعيدة على ثلاثة جياد، آثار الجروح و الكدمات بادية على أجسامها، فعرف أن هذه الجياد كثيراً ما تعفرت بالدم، ولا شك أن أصحابها فرسان أشداء امتهنوا الفروسية والقتال، فربطها ببعضها وعاد بها الى البيت، ووضعها في الاسطبل وذهب الى النوم.

في الصباح سأل درويش أمه عمّا أحضره له والده، فقالت:

- لقد أحضر لك ما تريده وقد وضعها في الاسطبل، اذهب الى هناك وسترى.

نظر درويش الى الجياد وقال:

- إنه أحضر لي " كدشاً "[1] وليس جياداً.

وأمسك بذيل اثنين منها وضرب بعضهما ببعض، فارتطما وطرحا أرضاً، وتناول رمحه وقال:

- قسماً سأجوب في العشيرة وأجتث بذرة الرجال منها.

مرة ثانية توسل الأب إليه وطلب منه التريث، فإنه سيتجه غرباً وسيحضر له ما يريد.

ومضى في اتجاه الغرب مسافة ثلاثة شهور من الزمن وعاد، عندها سأله درويش عن طلبه فقال:

- حسناً يا بني إنه ما يزال في بطن أمه، لم يره أحد من ذي قبل حتى في الحلم، وقد دفعت عربوناً عليه ما مقداره كيساً من الذهب العثماني.

وحان موعد استلام الجواد – ولأنه لم يعثر عليه فقد تجاهل الأمر – فسأله درويش:

- ماذا عن الجواد يا أبي؟

فأجاب:

- حسناً يا بني، غداً سأذهب لآتيك بخبر عنه.

---

(٢) نوع من الخيول البلدية تشبه الاحصنة.

وفي الغد أعدّ عدته ومضى في المسير، وكان قد جاء الربيع وجلب معه الدفء الى الأجواء، وقريباً من نهر كبير كالبحر، حدث أن ثارت شهوة الفرس الجنسية، ولما وصل الى النهر الذي كانت الحشائش والنباتات الخضراء تغطي ضفافه، ترجل من فرسه وربطها برسنها في وتد دقه في الأرض، وسار على العشب الأخضر قليلاً وبعدها تمدد عليه فغطّ في نوم لذيذ.

وفجأة شعر في نومه وكأن دوياً قد صدر عن البحر، فتح عينيه والتفت حوله، فرأى كائناً بحرياً كبيراً قد خرج من الماء وقفز فوق فرسه وجامعها ثم عاد على الفور الى الماء، فسَرّ لذلك وقال لنفسه:

- لا شك أنها تلقحت وستحمل من الكائن البحري، وتلد جواداً كما يريده درويش.

فأسرع الى الفرس وامتطاها على عجل وسار بها راكضاً كي لا يفسد تلقيح الفرس.

والى أن وصل جبل سنجار استغرق الأمر ثلاثة أشهر من الزمن، ودخل الخيمة ذات الخمسة والأربعين عموداً، والتي في وسطها اثنا عشر عموداً معمولاً من الذهب العثماني الصافي.

في جانب منها كان أخواه العاقران جالسين في يد كل منهما نرجيلته التي تتصاعد منها قرقرة صوت الماء، وفي الجانب الآخر كان درويش جالساً عند الطاولة وفي يده القلم يكتب ما يخص شؤون الخمسة والأربعين بيتاً من بيوت العشيرة.

حين رفع رأسه ورأى والده، سأله:

- الى ماذا آلت الأمور يا أبي؟

عندئذ صارحه الأب وحكى له ما جرى، قال درويش:

- حسناً، كم من الوقت مضى على ذلك؟

قال الأب:

- ثلاثة شهور مضت ونحن في الشهر الرابع من ذلك.

تناول درويش قلمه وبدأ يحسب كم من الوقت يلزم حتى تلد الفرس.

ومضت الأيام – إن ذلك قصير في الحديث والكلام، لكنه طويل في الحقيقة -.

وفي اليوم المقرر لولادة الفرس ذات الذيل المقصب، كما توقّع درويش ذلك من قبل، لم يذهب للنوم وبقي ساهراً يترقب.

وعند الفجر أخذت آلام المخاض تدب في أحشاء الفرس، وهكذا ولدت وليداً بحجم مُهر عمره ستة شهور، وهرع الى والده ودعاه الى أن يرى ما ولدته الفرس، لقد كان أحدى القائمتين من الأمام وواحد من الوراء أبيض اللون، فبارك له الأب وقال:

- حقاً إنه سليل الكائن البحري.

وأخذ درويش يعتني بجواده على قمم جبل سنجار، ويرعى به في المراعي الخضراء، وقضى في ذلك قرابة سنتين، في حين كان الناس يظنون أن درويش صغير غرٍ يتسلى بـ " كديشه ".

وبعد مضي عامين ونصف، كان جواده قد كبر ونمى، فأراد أن يطلق عليه اسماً يليق به، لذلك قرر أن يجمع البيطرين في جبل سنجار من أجل ذلك.

وجه دعوات الى وجهاء العشيرة والبيطرين للاجتماع في خيمة والده، الذين جاؤوا وهم في حالة قلق شديد قائلين لأنفسهم:

- ماذا جرى ثانية؟، إن عائلة عفدي ملحم اخوة ثلاث كفرسان الغيب ومعاركهم لا تنتهي، ولا شك أن مصيبة جديدة قد حلّت بهم وأننا سنفتقد الكثير من الرجال وربما نُباد جميعاً.

ولما عُقد الاجتماع بدأ درويش بتلاوة الأسماء واحداً تلو الآخر، دون أن يعلم أحد ماذا يخبئه من أمر.

وخرج من المجلس، ثم سرعان ما عاد مصطحباً جواده معه واستقر في وسط المجلس مع جواده، ثم قال:

- أيها الحضور، أريد منكم أن تختاروا اسماً لدابتي هذه.

اندهش الحضور الذي أبهره هذا الجواد الغريب، وفي صوت واحد ردوا قائلين:

- إن هذا ليس دابة، إنه كائن من نسل الحيتان أو الغيلان.

قال درويش:

- لا أعرف، المهم أريد اسماً له.

وهكذا تداول المجتمعون الأمر واتفقوا على أن يكون اسمه " هدبان "، إنه جواد عجيب، حدواته تزن أرطالاً ومساميرها أوقيات.

وبعد أن انفضّ المجلس وعاد المجتمعون الى بيوتهم، توجه درويش الى القسم الحريمي من الخيمة ووقف يخاطب أمه:

- أماه.. إن قلبي حزين في حجرته... آه إن قلبي مائل في حجرته، أنا الذي أتولى زمام أمور خمسة وأربعين ألف بيت من عائلات الزرادشتيين في ربوع جبل سنجار... لقد هاج قلبي كالبحر حين يعلوه صرخات الموج، إني أرى " هدبان " وهو في مربضه يرقص كالمجانين، يكاد أن يقتلع الأوتاد ويقطع قيده، أماه... أخبري والدي إن جواداً كهذا لا يمكن لفارسه أن يكون دون عتاد وسلاح لائق به.

ردت الوالدة قائلة:

- أيا بني، لقد مضى زمن والدك، ولم يبق لديه طاقة على خوض المعارك، إن عتاده وسلاحه وسيوفه معلقة منذ ثماني سنوات على أطراف مضافة الفرسان، ومَن سواك سيتناولها ويضعها على كتفه وخاصرته؟ إنها لك يا بني، وإن كانت ثمة مصيبة ستنزل بك فلتصيبني أولاً، ولتبق أنت سالماً.

آه... يا بني، إن والدك واسكان باشا المللي، صديقان حميمان وأصحاب من الروح الى الروح حتى الممات، فقد كان يذود عنهم كلما حلّت مصيبة، وقد كان يجوب البراري ومعابر الجبال في معاركهم ويدفع الشر عنهم، وإذا كنت تسألني عن فتاة أو عروسة تقترن بها، فإن مرادك هو عدولة الفاتنة في ديار المللييين، سليلة الآغوات، نعم يا بني عندما كنتما جنينين تعاهد والداكما على أن تتزوجا بعضكما فيما لو كان أحدكما ذكراً والآخر أنثى، وقد أقسم على ذلك اسكان باشا بثلاثين جزء من القرآن، وأقسم والدك على الطلاق ان لم يفعل ذلك. وعندما ولدتما وأصبحتما في المهد فقد تم تعليم مراجيحكما في سبعة مواضع تأكيداً على الوفاء بالعهد.. لذا يا بني ما عليك إلا أن تتجه نحوربوع سهول المللييين لتحل ضيفاً على اسكان باشا في مضافته وتلتقي هناك من

تنتظرك بشوق ولهفة، ولطالما كان " هدبان " جوادك فإنه سينقذك من الكثير من المصاعب والمصائب ويعينك على اجتيازها.

في الصباح التالي نهض درويش وتناول العتاد والرماح ذات الاثني عشر قدماً في طولها، الرماح ذات الخمسة عشر مفصلاً، التي لا يقدر على حملها إلا الفرسان الأكراد ويعجز عنها سواهم، والتي تعادل قوة اصابتها قوة صواعق سموات سبع، فإن أصابت أحداً فبئس مصيره، لأنه ما من علاج أو دواء ينفع عند ذلك، وستودعه ديار الرحمة دون رجعة.

نهض درويش، يريد الذهاب الى سهول المللیين عبر الشعاب ومعابر الجبال.

وصل درويش الى معقل اسكان باشا، في هيئة فارس شديد، مشمراً عن زنوده حتى المرفقين، ولما لم يستطع أن يدير وجهة جواده ويدخل البوابة، فقد تناول رمحه وتوكأ بها على السور ووضع كل ثقله عليها مما جعلها تخترق السور وتخرج من طرفه الآخر بمقدار شبر وأربعة أصابع، وأوقف جواده وترجل ثم دخل المضافة.

في المضافة يلتقي عدولة التي تسرع نحوه بشوق ولهفة وتخبره أن أباها غير موجود، لذلك تدعوه الى القسم الحريمي وراء الستائر في المضافة للحديث عن أمور العشاق وفتح صناديق القلوب، إلا أن درويش يرد عليها قائلاً:

- إنك تعلمين ان أية مصيبة تحل بكم فنحن أول من يدفعها عنكم، وأننا في المبارزات وميادين القتال وساحات الحروب نفوق شجاعة ورجولة كل آغوات المللیين، ثم أنه إذا كانت عشيرتكم إثنان وأربعون ألف بيتاً، فنحن خمسة وأربعون ألفاً، وإن عشيرة والدي أكبر من عشيرة والدك بثلاثة آلاف بيت، وتعلمين أيضاً كما أعلم، أنني من أجلك سأحمل حمل الحمص[1]، لذلك الى أن يتحقق مرادنا في الزواج، لن أمسّك أبداً وسأكون أخاً لك حتى يوم مرادنا.

تربع درويش في صدر المضافة وما زال قلبه يجيش بالغليان، يعلو ويهبط كسلاسل الجبال.

---

(١) حمل الحمص: في الكردية تعني العبء الثقيل معنوياً مثل المخاطر والمصائب الكبيرة.

تأملته عدولة ورأت كيف أن فارس الـ " هدبان " قد احمرت عيناه كقذائف المدافع، وأن حنجرته تعلو حتى نهاية الذقن وتعود هابطة لتبلغ مناطق القلب، وعروق الرجولة نافرة في جبينه كأصابع اليد، وحاجباه يتحركان

فوق العينين كأفواه المدافع، لذلك قالت لنفسها:

- أفديك أيها الفارس الكردي، قسماً عظماً، لو أن حمل الحمص انقلب علينا، فإنه لن يكون هناك أحد سواك يرفعه عنا.

قال درويش:

- أيا عدولة، لا تتزيّني كما تفعل ذلك العرائس والصبايا، أنا اليوم ضيف في مضافة والدك، أنا أخ لك وأنت أختي الى أن يتحقق مرادنا وسنبقى ننتظر حتى ذلك، إنه لعار كبير على اسرة عفدي ملحم بيك التعرض لأعراض الكرد، ما زالت وصايا والدي تطن في أذني بخصوص ذلك.

ذهبت عدولة تخبر أباها العجوز ذوالخمسة والسبعين عاماً من العمر، المتربع على العرش الذهبي ذي القوائم الستة، كما تقتضي القوانين والشرائع وتقول:

- أبي... لقد جاءنا اليوم ضيف، ضيف كبير وعزيز... زعيم ربوع جبل سنجار... من أسرة عفدي ملحم بيك يقال له درويشي عفدي فارس الـ " هدبان ".

رد الوالد:

- أهلاً بذاك الضيف يا بنتي.. سأفترش صدري وقلبي له.. ولأخبرك أنكما عندما كنتما صغيرين في المهد فإن مراجيحكما قد علّمتا في سبع مواضع على أن نزوجكما لبعضكما وأقسمنا على ذلك أغلظ الأيمان.

قالت عدولة:

- مهلاً يا أبي، أقسم على أن كل عناد الكرد قد ركب رأسه ورأس جواده...

لقد تحدثت إليه بضع عبارات خاصة بيننا، فرأيت كيف عيناه احمرّتا وقد همّ بالخروج من المضافة والرحيل، وطلب مني أن لا أتحدث إليه، وقال بأننا اخوة حتى الممات، ولم آتي من أجل التعرض لحرمات الأكراد أو انتهاك أعراضهم، كل ما في الأمر هو

أنني ذات يوم وجدت جوادي " هدبان " قد هاج في مربضه ويريد أن يخرج ويجري في البراري، وكاد أن يقطع قيده ويقتلع الأوتاد من أجل ذلك، فقد كان يرقص كعربيد هائج، لذلك أعددت عتادي وجهزته وامتطيته وخرجنا، وبعد أن قطعت مسافة شهر من الزمن في المسير وعبور الشعاب وجدت نفسي هنا في دياركم، آه يا والدي، إن درويش قد جاء لأجلي وهو يخفي ذلك، آه فليطح برأسي ما أملكه من حسن وجمال، ليت عيناه لم ترياه!!.

ينهض اسكان باشا ويذهب الى المضافة لاستقبال درويش.

يراه الفتى الأصيل قادماً إليه، فينهض ويقف مستعداً الى أن يدخل الشيخ عتبة الباب، فينحني له ويرد عليه تحيته بأحر منها ويسرع إليه ويتناول يده ويقبّلها، بينما يحتضنه العجوز ويقبل جبينه الذي كأنه جبين الكباش القوية، ويتأمله ويقول لنفسه:

- حقاً لأنه في هيئة كردية حقيقية، فتى ذا صدر عريض كقاع البواخر.

عادت الفاتنة الحسناء الى القسم الحريمي خلف الستائر والبرادي ونزعت عنها لباسها البلدي وألقتها جانباً، ولبست الروب الديار بكري المقصب ومن تحته ثوب الصبايا والعرائس، ثم كحّلت العينين الحوراوين ووضعت الشال على رأسها، ووضعت العصبة على جبينها في غنج ودلال.

تريد أن تجلس في حضور فارس الكرد، زعيم الأكراد في جبل سنجار.

دخلت الفاتنة المنحوسة المضافة بكامل أبهتها الكردية، وجلست قبالة الفارس الضيف، الذي ما أن رفع رأسه ووجدها على تلك الحال من التزيّن والتبرج، حتى طأطأ برأسه وأخذت الدموع تنسال على وجنتيه وهو يقول لنفسه:

- آه أيتها الدنيا فليصيبك العمى، ما كنت أعلم أن حبل[1] النساء حبل طحلبي، لا يؤتمن في أن يغوص المرء به الى الأعماق، ها هي عدولة جاءت متبرجة ومتزينة لي، إنه لعار عليّ أن أنظر إليها وأنا في مضافة أبيها.

---

(١) الحبل هنا بمعنى العهد والوعد كما في اللغة الكردية مجازاً.

أدار درويش ظهره الى الباب وعدّل في جلسته، بحيث أصبحت عدولة وراءه، وشرع في الحديث الى الشيخ العجوز في مواضيع يتناولها كبار السادة.

وطال الحديث الذي جعل اسكان باشا يشعر أنه أمام ند عنيد يقرع الحجة بالحجة، ويصعب مجاراته في العلم والمعرفة، إنه حقاً أهل لأن يكون زعيم خمسة وأربعين ألف بيت.

نادى بصوت على ابنته، ربة البيت الكبير وقال:

- أيا بنتي كان الوقت ضحى حين جلسنا، وها قد غابت الشمس وحل المساء، أو عزي الى مئة وأربعين عنصراً من الخدم والحشم للذهاب الى سهولنا وبرارينا وذبح عدد من الشاة لإعداد وليمة لضيفي، إن أموالي كثيرة لا تأكلها النيران فماذا عساني أفعل بها إن لم تكن لأمر مثل هذا؟

قال درويش:

- آه أيها العم، أنا لم آتي من أجل الولائم، فما زال يوجد في بيتنا فنجان قهوة وكسرة خبز.

رد عليه الشيخ:

- يا بني درويش، سننام هذه الليلة ومع حلول الصباح سأصطحبك معي وأنت تمتطي جوادك، وسنتجول معاً فأنا لديّ ثلاث وسبعون قرية شؤونها وأمورها كلها بإمرتي، وأثناء تجوالنا في ربوع العشيرة فإنك سترى صباياها وفتياتها الحسناوت، وأية واحدة تختارها وتضع يدك عليها، ستكون لك ولن أجعلك تعود الى ذويك وحيداً.

مرة أخرى طأطأ درويش برأسه واحمرت عيناه كقذائف المدافع، وسالت الدموع فوق وجنتيه، ورويداً رويداً اقترب الليل وهو يفكر فيما سمعه ويريد أن يرد على عمه فقال:

- آه ... يا عم، إن قلبي حزين في حجرته، لعلّك رأيت رمحي كيف أنها ذات رأسين، رأسها الأول مزيّن بضفائر الحسناوات والثاني معفّر بدماء الفرسان وما يزال يقطر دماً. لم آتي كي أتفرج على صبايا وفتيات الكرد، لقد جئتك ضيفاً، ومن يدري فحياتنا نحن الفرسان، أننا ربما في الغد سنتلقى خبراً يلقي بنا في ميادين القتال وساحات الرجال، ولا

قدّر الله إن داهمتك مصيبة ووضع عليك عبء كحمل الحمص، فأنا سأتقدم لأردّه عنك، فأنت ليس لديك أبناء ذكور يقومون بذلك.

في الصباح التالي نهض درويش من سريره ورفع عيناه ناظراً نحوالمروج والمراعي المحيطة بالبيت، وإذ به يرى الـ " هدبان " في حالة اهتياج كعربيد ماجن، يريد أن يقطع قيوده ويقتلع أوتاد مربضه، وقد رأته عدولة، التي أوكلت لنفسها القيام على خدمته، رأته على حال من الاستعداد كمن يهمّ بالرحيل، فبادرت الى القول:

- ما بك أيها الفارس، أراك هذا الصباح وقد تهيّأت كما يتهيأ سبعة فرسان، فديتك بروحي، ألا تعلم أنك ضيف في مضافة عمك، وافترشت لك قلبي، لقد بدأت – منذ أن رأيتك – بالتفكير في حب الرجال، وسأقسم لك بقَسَمنا نحن السنيين، بثلاثين جزءاً من القرآن – وتقوم بأداء القسم – بأنني من الآن فصاعداً وحتى يوم مماتي، من بعدك – لا أراني الله موتك، فإن كانت لك ميتة فلتصبني أنا – سأحرّم على نفسي حتى شرب ماء النبع وأكل لحوم الشاة التي ترعى قرب مجاري الأنهار والمراعي الخضراء، ما من أحد سواك سيحوذ بياض صدري هذا الذي كالبدر.

وضع اسكان باشا المللي الحمّية الكردية أمام درويشي عفدي، فارس الـ " هدبان " بأن قال:

- آه يا بني، إن قلبي ليوجعني من تهديد " Chil Ibrame Turk " و " Qafar " أنه أصم لا يسمع شيئاً، وصغيرهم أخرس لا ينطق حرفاً.

ثم وضع أربع رسائل أمام درويش وقال:

- اقرأ بنفسك لترى، إنه يريد أن يأخذ عدولة بالغصب والقوة، يريد أن يلوث شرفي ويضعه تحت الأرجل.

قال درويش:

- آه يا عم، إنك بمثابة والدي، أقسم بأنه لو علم بمجرد أنني ضيف عليكم فسيندم على رسائله هذه، إن عائلة Chil Ibrame Turk تعرف من نحن، حتى أن والدي قد أصابه هو بأربع ضربات في جسمه لن تزول آثارها، وصرع ثلاثةً من أخوته وأودعه في

ذمة الموت. إن النزاعات والحروب كلها تـأتي مـنهم، مـن أرض الأتـراك، ألا تعلـم أننـا منـذ القدم متوحمين على دماء بعضنا، كما تتوحم النساء الحوامل، أقسم بأنني سأمتطي الـ " هدبان " وأحمل رمـاحي وسـأبتدئ مـن تخـوم وحـدود الأتـراك وحتـى مدينـة اسـتنبول، وسأجتث بذرة الرجال منهم، ولتأتي نسائهم الحوامل يتفرجن من على الأسـوار وبوابـات البيوت، ويرون ضربات الرجال.. ضربات درويشي عفدي، ويتمنين أن يتحـرك الجـنين في بطونهن عسى أن يلدن شبيهاً بفارس الكرد،

آه يا عم... إن جوادي طريقه سالكة دائماً فلتطلب احضاره لـي، لقـد حـل ضـيفاً ذات يوم على مضافة المسافرين والضـيوف، فسامحه على مـا نـال مـن ذلـك، أريـد أن أمتطيـه ونجوب القفار، إن صـهيله قـد صـمّ أذنـي كصـوت المـدافع، وسأضـرب رمحـي في فـم الدولـة العثمانية.

والتفت الى عدولة قائلاً:

- استودعك أنت وعهدك، ولا أريد أن أسمع شـيئاً منـك الآن فـإن نطقـت بكلمـة، قسـماً لأنتحر أو أنحرك.

درويشي عفدي كبير فرسان الكرد في ربـوع جبـل سـنجار، معقـل الأشـقياء والفرسـان، امتطى الجواد الذي كأنه من سلالة الغيلان أو كأنه مخلوق مـن الـريح والمطـر، كلمـا أطلـق صهيلاً سرى صوته مسافة ساعتين ونصف من الزمن.

امض يا فارس بيت والـد عدولـة، عدولـة بكـت مـن بعـده دموعـاً داميـة ولم تسـتطع النهوض من مكانها.

وسط العشيرة، مضى الفارس الكردي، وكل من رآه وقف مندهشاً وقرأ صلواته لما رأت عيناه، من شخص مهيب شامخ الرأس وقد احمرّت عيناه كقذائف المدافع، وهو يتضرع الى الله أن يفـتح سـبيلاً في وجهـه، وأن ينـازل الشـر ويقاتلـه وأن يتحقـق مـراده في أن ينـازل Chil Ibrame Turk في ساحة القتال.

ظالم بك وناصر بك[1]

حكاية ظالم بك وناصر بك هي حكاية أخوين في مرابع شرف دين[2]، ناصر بك هو الكبير وظالم بك الصغير، وهو منكب (أي ظالم بك) على علوم الدين ودراسة الفقه والقرآن.

ومنذ وفاة والديهما لم يخرج من غرفته ولم ير ضوء الشمس، وكل ما يلزمه من احتياجات " كراريس، ملابس...الخ " وحتى طعامه يأتيه الى الغرفة، وهو بذلك لا يفارق دروسه ولا يتأخر عن اجتهاده.

أما أخوه ناصر بك فإنه مغرم بالقنص والصيد، ولا يجد في الفرسان والرجال من هو أكثر بسالة وفروسية منه.

قالت الأم ذات يوم:

- يجب أن يتزوج أحدكما، فأنا لم أعد أستطيع القيام بواجباتي على خدمة الضيوف والوافدين من أبناء العشيرة.

ولما كان الصغير معتكفاً لا يخرج من البيت، فقد خط على ورقة وكتب الى أخيه:

" يتوجب أن لا تتعذب والدتنا، فتزوج واختر حليلة لك، فترتاح الوالدة ".

---

(١) حكاية ظالم بك وناصر بك هذه من رواية المغني الشعبي الكردي رفعت داري، من منطقة القامشلي شمال سورية.

(٢) مرابع شرف دين: اسم منطقة كردية.

عندما قرأ الكبير ذلك قال:

- حسناً سأبحث عن زوجة لي.

ولم يبحث عن ابنة صاحب حسب ونسب، واختار من عشيرته فتاة رائعة الجمال اسمها غزالة وتزوجها.

وبعد أن تزوج بحوالي شهر أو شهرين، استأذن منها ليزاول عمله المعتاد وهوايته في القنص والصيد والتجوال على حدود عشيرته.

ومن عادته أنه في رحلاته للصيد يبقى شهرين أحياناً دون أن يعود الى البيت.

وذات يوم بعد خروجه للصيد بحوالي خمسة عشر يوماً، وقفت غزالة عند باب المضافة، وهي لا تعرف بعد من هو أخ زوجها أو ماذا يعمل، وبينما كانت واقفة عند الباب، كان الخادم يحمل ابريق الماء الى ظالم بك ليغسل يديه، فرأته غزالة وقالت لنفسها:

- أي فتى هذا؟ سبحان الله على هذه الوسامة.

وسألت وصيفتها " جاريتها " من يكون هذا؟

فأجابتها:

- إنه أخوك

- أخي؟ لا أعرفه، ماذا تقصدين؟

قالت:

- إنه أخ زوجك

وطلبت من الجارية أن تنادي عليه ويأتي إليها، لكن الجارية " الوصيفة " قالت:

- والله، إنه لا يخرج فالفتى معتكف بأمر من أخيه، ولو أني طلبت منه ذلك فسينزعج كثيراً.

ألحت عليها وأمرتها:

- أقول لك اذهبي وبلغيه سلامي وليأت إليّ لحظة، ولا شأن لك بما سيحصل.

ذهبت الوصيفة إليه وطلبت منه ما أمرت به غزالة، لكنه رد قائلاً:

- لم يأذن لي أخي بذلك وهو بمثابة أبي، ولا أستطيع أن أقوم بشيء دون علمه.

لكن الوصيفة – بناءً على أمر سيدتها – ذهبت إليه مرة ثانية وأبلغته الحاح السيدة على حضوره، مما جعله يفكر بينه وبين نفسه بأنها قد تحتاجه لأمر ضروري، فهي غريبة وحديثة الإقامة في البيت، وربما هي في حاجة الى شيء من المال لأمر ضروري،

لذلك قرر الذهاب إليها، فتوجه الى غرفتها وأوصدت الوصيفة الباب وراءه وتركهما على انفراد في الغرفة.

بعد أن جلس قرابة ساعة من الزمن قال لها:

- بماذا تأمرينني يا أختاه؟ لقد حان موعد دروسي ويجب أن أذهب.

وهم بالنهوض، ولكن المرأة أمسكت بسترته ومنعته. سألها:

- يا أختاه، هل لك حاجة بشيء، هل تريدين أن تقولي شيئاً؟

ردت المرأة:

- اجلس، لماذا تتعجل؟

عندئذ أدرك ظالم بك الأمر وعرف نيتها الفاسدة، وناولها لكمة بظاهر يده على فمها، فامتزجت ما تكسرت من أسنان بالدماء في فمها وأغمي عليها.

حين استفاقت غزالة من اغماءتها، أسرعت الى كتابة رسالة بدم فمها وسملتها الى أحد القهواتيين " الخدم الذين يعدون القهوة " وقالت له:

- أوصل هذه الرسالة الى ناصر بك بنفسك وليأت حالاً، عليك أن تجده أينما كان في الشرق أو في الغرب، عليك أن تجده وتعطيه الرسالة.

أما الرسالة فقد كتبت فيها: " بعد ستة عشر يوماً من غيابك تهجّم أخوك على بيتنا واعتدى على عرضي، هذه هي حالتنا "

مضى يومان أو ثلاثة الى أن استطاع القهواتي العثور على ناصر بك، بعد أن جال في الشعاب والبراري، وناوله الرسالة.

جُن جنون ناصر بك وطار صوابه عندما قرأ الرسالة، ولم يعد يعرف ماذا يحدث حوله في هذا العالم، وقال لمرافقيه:

- أيها الفرسان، ضعوا أرجلكم في ركاب جيادكم وهيا بنا نعود، وفارس هو من يصل أولا.

وصلوا الى البيت، ودخل ناصر بك ورجاله الى المضافة وعقدوا اجتماعهم.

في المقابل أدرك الفتى " ظالم بك " أن المرأة أرسلت رسولاً وراء زوجها وأحضرته، لأنه ليس من عادته أن يعود باكراً وبهذه الطريقة من رحلاته للصيد، لذلك أوصد باب غرفته بإحكام في انتظار الفرج من رب العالمين.

في اجتماع ناصر بك ورجاله، أرسلوا شخصاً لتبليغ ظالم بك للحضور الى المجلس ولكن الأخير رفض الذهاب.

وبعد تكرار المحاولة بالحاح من ناصر بك، قام الفتى زالم بك بكتابة رسالة وسلمها الى الشخص الذي جاء لمناداته، حيث كتب فيها: " أعرف أن أخي ينوي قتلي، ولكني أرجومنه بأنه إذا كانت رغبته قتلي فأن لا يكون وسط الناس وعلى مسمع ومرآى من القوم، لأنهم سيقولون باستهجان أنه قتل أخاه من أجل حرمة " امرأة ". لذلك أرجوأن يصطحبني معه الى رحلة صيد في البراري ويقتلني هناك ويشيّع خبراً بين القوم بأن خصوماً هاجموه وقتلوا أخاه ".

استشار ناصر بك وزراءه، وقال له أحد المسنين الحكماء:

- والله، إن رأي الفتى سديد، وهو على صواب فيما يقوله، حقاً فإن الناس سيقولون عنك كيف فعلت ذلك، هدّ الله بيتك، ان المرء يطلق زوجته ويقتلها ولا يقتل أخاه، لذلك من الأفضل أن نذهب للصيد، وإذا كنت ترغب في قتله، فاقتله هناك.

أخيراً تم الاتفاق على قتله في البراري، وأحضرت الجياد، وخرجوا للرحلة، وفي الوقت الذي امتطى ظالم بك الجواد المخصص له، كان يعلم بأن ذهابه لا رجعة فيه، إنها نهايته.

بعد مسير دام قرابة ثلاثة أيام ابتعدوا فيه عن الدار، قال أحد الخدم – وهو ثرثار ذولسان طويل:

- كفى يا آغا[1] أتريد أن تكافئه بين القوم بعد فعلته مع غزالة؟

فأمر ناصر بك بالتوقف، ثم استل سيفه وتوجه نحوالفتى ظالم بك، لكن

عجوزاً في الخامسة والسبعين – وكان من حاشية والده – أمسكه ومنعه من قتله، وقال:

- انتظر لحظة، إذا كانت ذكرى والدك تعزّ عليك، فليعزّ عليك موقفي ويهديك الله بأن تسمع ما أريد أن أقوله.

رد ناصر بك قائلاً:

- تفضل.

قال العجوز:

---

(١) آغا، بك، الجمع منها " آغوات، بيكوات " ألقاب تطلق على الوجهاء وأصحاب الأملاك الكبيرة، وما تزال تستعمل حتى الآن في العديد من مناطق كردستان.

- إذا قتلت الرجل فإنك تحمل مسؤولية ذلك، سواء كان السبب حقيقياً أم تلفيقاً. يا بني، لا يثق المرء بادعاءات زوجته، لقد قالت زوجتك ما قالته، وأنت لا تعرف إن كان ذلك صحيحاً أم كذباً؟ الأفضل هو بالنسبة لحال هذا الفتى الرزين الذي لا يشبع المرء من وقاره أن تأخذ منه عهداً وأن يقسم بأنه لن يعود ثانية الى مرابع شرف دين، وأنه ليس من زعمائها، وأن يمضي في سبيله الى بلاد غريبة يعمل راعياً أو خادماً، يموت أو يبقى، ليس مهماً، المهم أن لا يعود ثانية الى مرابع شرف دين.

التفت الى بقية الرجال سائلاً رأيهم في الأمر وكان رأي أكثريتهم متفقاً مع رأي العجوز، لذلك قال لأخيه ظالم بك:

- يا بني، لو أني أطلقت سراحك هنا ولم أقتلك، هل تعاهدني أمام ربك بأن لا تعود ثانية الى مرابع شرف دين؟.

تنفس الصعداء وأدرك بأنه قد يُعفى عنه وقال:

- نعم يا أخي أعاهدك، وليبلييني الله إن نكثت عهدي، إنك لو أطلقت سراحي فإني سأحرّم على نفسي – كما الاخت محرّمة على الأخ - العودة الى مرابع شرف دين حتى الممات، وأني أينما ذهبت فلن أقول بأني أخ ناصر بك من مرابع شرف دين، فقط لا تقتلني ودعني أواجه مصيري مع الدنيا، فقد يقتلني قطاع الطرق أو يفترسني ذئب أو وحش، اطلق سراحي ولا تجعل مقتلي يتم على يدك يا أخي، والله إني بريء ولا شأن لي بما قيل عني.

- حسناً، قال ناصر بك، عفوت عنك، هيا امضِ .

أخذوا منه الجواد ومضى الفتى ماشياً سيراً على الأقدام في أماكن لم يكن قد رآها من قبل قط، كان وجهه غاضباً متجهماً، وهو يمضي لعدة أيام في الغابات والحقول وبين الصخور.

* * *

آه... آه[1]

هكذا إذاً ... هكذا

أيها الزمن الخائن

---

(١) تصبح الحكاية مغنّاة على شكل مواويل اعتباراً من ذلك الجزء.

ها قد أصبح ظالم بك أخوناصر بك، زعماء مرابع شرف دين، مشرداً في بلاد الغربة بسبب امرأة ونزوات هذه الدنيا.

يقول لنفسه:

- اللهم أرسل إليّ ملك الموت عزرائيل ليقبض روحي، إنه أهون عليّ من أن أرى زعيم شرف دين خادماً لإمرأة.

بعد أن سار ظالم بك مسافة ثلاثة أيام بلياليها ونال منه التعب، نظر حوله من على قمة جبل ورأى أن أطراف عشيرة متجمعة في السفوح، يكاد المرء لا يرى نهايتها، وسأل عدداً من الرعاة كانوا قريبين منه:

- عشيرة مَن تكون هذه؟

فأجابوه:

- أيها السيد، إن هذه العشيرة المجتمعة هي عشيرة حسين بك وقد ورث عن أجداده العداوة لـ " ديسانة " وزعماء مرابع شرف دين.

ها هي أصوات قرع طبول الحرب تعلو، إنهم ينتظرون لحظة الهجوم على مدينة ديسانة في مرابع شرف دين.

* * *

آه... أيها القلب

ظالم بك جالس في مضافة الآغا، وقد قضى فيها ثلاثة أيام بلياليها.

بينما حسين بك يعدّ العدّة للهجوم على مرابع شرف دين، رأى أن ضيفاً في مضافته منذ ثلاثة أيام.

سأله:

- من أنت ومن أية عشيرة تكون؟.

رد ظالم بك:

- أنا انسان غريب انقطعت بي سبل العيش وجئت هنا أبحث عن رزقي، أتوسل إليك أن تقبلني راعياً أو خادماً أو عاملاً، يصعب عليّ أن أبقى جالساً في المضافة عالةً عليكم.

قال حسين بك:

- لا تخجل يا بني، قل أي عمل تستطيع القيام به، وأية مهنة تعرفها؟

أجاب:

- سيدي، أقسم بالله أنني لا أعرف شيئاً عن أعمال الفلاحة

سأل حسين بك:

- ما رأيك يا بني بأن تعمل قهواتياً في المضافة؟

- سيدي لا أعرف مهنة القهواتي

قال حسين بك:

- من الأنسب لك أن تقوم كل صباح وتمتطي فرساً وتحضر أربع تنكات من الماء لأجل خض اللبن وعمل العيران، وتجلس قريباً من مكان الحريم لإحضار الماء وقت الحاجة وأن لا تطأ المضافة.

- أفديك يا سيدي، أقسم بالله إنك عرفت مهنتي التي أزاولها منذ الصغر وهي أنني سقاء.

كان يوم الجمعة، حين كان الفرسان قد أعدوا عدتهم واستعدوا للحرب.

كان هناك شقيقتان، بنات الآغا، احداهما تدعى عائشة، سألها ظالم بك:

- أختاه، الى أين يريدون الذهاب

ردت قائلة:

- أخي، سيذهبون الى مرابع شرف دين، لقطع رأس الأخوين ناصر بك وظالم بك واحضارهما الى الزريبة.

* * *

إن رابطة الأخوّة حلوة بين سائر أشياء الدنيا، وقد تضاعفت فروضها ذلك اليوم، وأخذت الدموع مجراها كالسيل على وجنتي ظالم بك.

قالت عائشة:

- ماذا جرى أيها الأخ، هم سيذهبون الى حربهم، ما شأنك أنت بالأمر؟ أراك باكياً؟.

رد عليها:

- أختاه، لست متأسفاً على الفرسان والرجال الذين سيتجندلون ويخرّون صرعى في الميدان، ولكني أفكر بما سيحصل هنا، حيث جميع الرجال سيغادرون العشيرة الى الحرب،

ولا سمح الله إذا تعرضنا لهجوم ما، سيجدونني عندئذ وحيداً بين النسوة وسيقطعون رأسي ويودعونني تحت جناح ملك الموت.

* * *

مضت ثلاثة أيام بلياليها، ودخل فرسان حسين بك ورجاله حدود مرابع شرف دين، نصبوا خيامهم وأعدّوا أباريق القهوة، وتعالت أصواتهم وضحكاتهم في الاستراحة وهم يتهيأون للغزو في اليوم التالي، دون أن يعلموا بما يحدث وراءهم لعشيرتهم.

فقد أطل المدعوخليل بك ومعه مائة من أشد الفرسان وهو الذي يعرفون عنه أن ما من قاطع طريق أو فارس يضاهيه في البأس والشجاعة والشقاوة.

داهم برجاله عشيرة حسين بك التي كانت يومها خالية من الرجال، واستولى على كل ما وجده في طريقه من ممتلكات وأرزاق وحملها معه وقاد القافلة ومضى في سبيله.

تعالت صرخات النسوة وصياح الفتيات وهنّ يتراكضن هنا وهناك دون جدوى، إذ لا توجد ولو رائحة رجل في العشيرة، فالوحيد الذي كان موجوداً هو محمد ابن العجوز، وقد خرج للصيد، وإن وُجد فإنه لا ينفع في شيء لأنه يخاف حتى من الأرانب، لذلك تراكضن نحومكان السقاء - وهو ظالم بك المتنكر - ونادين عليه:

- هيا انهض أيها البائس المتخلف عن الفرسان والرجال.

ولما سمع السقاء الولاويل والصرخات رد عليهن موجهاً حديثه الى عائشة: - أيا أختاه، ألم أقل لك مراراً بأن ذلك سيحدث، والله ما من شيء أراه في منامي إلا ويتحقق ويحدث في الواقع، أنا لست فارساً، ماذا تريدون مني، الى أين تريدون أن ترسلونني؟ فليعاقبني الله ان كنت قد امتطيت ولو حماراً ذات يوم، الى أين تريدين أن ترسليني وتركبينني جواداً، أتريدين القضاء على نسلي ونسل والدي؟ فلو أن الرعاة والغلمان والخدم خاضوا حروباً ودخلوا معارك، لما كان هناك آغوات وبيكوات على وجه الأرض، إن ما تطلبينه مني لا قدرة لي عليه، إنه ليس عملي ولا كان عمل والدي، دعيني وشأني يا أختاه.

ردت عائشة:

- فديتك غُريبو- Guriyo غُري معناه الأجرب، وهو هنا نوع من الدلع والتحبب لشخص بائس من المرتبة الدنيا، وسيكون هنا لقباً جديداً لظالم بك في أماكن عديدة من الحكاية -، هيا فلتذهب الى مرابع شرف دين، الى عند والدي حسين بك وتخبره بأن يأتي على وجه السرعة، فقد نهبوا عشيرته وربما يعود اللصوص للإعتداء على أعراض النساء

أو خطفهن، لذلك عليه أن يعود في الحال، لأنه بالكاد يلحق حماية أعراضه بعد أن طارت الممتلكات.

وهكذا أجبروا ظالم بك على الذهاب، أحضروا جواداً وحملوه على ظهره وحزموه جيداً، وهو نفسه طلب منهن أن يربطنه على السرج بإحكام، وقال مبرراً ذلك بأن الجواد قد يتعثر في الطريق فيقع هو ومن على ظهره وسوف لن يستطيع امتطاءه ثانيةً وإن ظلّ يحاول ذلك ثلاثة أيام بكاملها، فهو ضعيف لا يقدر حتى ركوب الحمار.

وهكذا بعد أن ربطوه بالحبال على السرج ودفعوه باتجاه مرابع شرف دين، مضى وفي خلده أشياء اخرى، فما أن قطع الوديان المحاذية للجبال وتجاوزها، سار باتجاه الطريق الذي سلكته قافلة خليل بك المحمّلة بالغنائم، الى أن تجاوزهم في طريق التفافي وصار في مقدمتهم على مسافة كافية، أوقف جواده وأزاح الحبال عن جسمه وترجّل على الأرض متنهداً يقول بينه وبين نفسه:

- آه أيها الزمن ... أيها الحظ التعيس ... هكذا إذاً يصبح المرء غريباً ... ويفقد قيمته في الغربة.

وهكذا قطع الطريق أمام قافلة الغازي خليل بك الذي ما أن اقترب منه قال لرجاله:

- بالله عليكم انظروا الى هذا المسكين الذي هدّه الرعب والخوف في هذه البراري، اسألوه إن كان يحتاج شيئاً أو يريد أمراً، أعطوه شيئاً من المال أو عدداً من الماشية ليسترزق من حليبها، ولينزاح عن طريقنا، قبل أن يعود حسين آغا من المرابع، فقوّتنا أقل من قوة عشيرته، وطريقنا ما تزال طويلة، يجب أن نسير ولا نتوقف.

ذهب اثنان من فرسان خليل بك الى ظالم بك وسألاه:

- أيها المسكين الفقير اطلب ما تشاء من المال فسنعطيك إياه، إن ما نحمله سبي وغنائم وسنعطيك ما تحتاجه.

لكن ظالم بك ما كان ليرضيه شيء في ذلك اليوم ورد قائلاً:

- أيها السيد، لستُ متسولاً أقصد دربكم، ولا شحاذاً أتلمس عطفكم أو هبةً منكم لقاء مصادفتي لكم في الطريق، أقسم بالواحد الأحد أنه لا جبريل ولا عزرائيل ملك الموت يستطيعان أن يخلصاكم مني في هذه البرية. إن الغنائم ستتركونها لا شك، ولكن أريد نصف عدد الأحصنة، وليترجل فرسانها أو ليمتطوا أحصنة زملائهم خلفهم " حصان لكل اثنين من الفرسان ".

قهقه الفرسان بسخرية قائلين:

- أجُننت هنا في هذه البرية.

لكنهم عرضوا عليه – من قبيل الشفقة على حاله– ثلاثة أرباع الغنائم.

إلا أن ظالم بك لم يرض بذلك، فعرضوا عليه كل الغنائم قائلين:

- لا يهمك نحن سنتدبر أمرنا في مكان آخر، وخذها كلها وامض.

ولكن ظالم بك أصر على طلب خمسين حصاناً من أحصنتهم وقال إن ذلك من أجل أن يصدّقه سيده، بأنه فعلاً استرجع الغنائم، وأن الفرسان والبواسل يمكن لهم أن يكونوا من فئات الغلمان والخدم أيضاً.

انفعل أحد الفرسان وثار غضباً ولم يتمالك نفسه فضرب وجه ظالم بك بصفعة أسقطته أرضاً.

ولكن الله تعالى أعطى ظالم بك قوة لا تقهر فقد نهض وردّ بركلة قوية على خاصرة حصان ذلك الفارس، جعلت الحصان يثب ارتفاع ثلاثة أمتار عن الأرض ويسقط، مجندلاً معه فارسه.

استل ظالم بك السيف، وبدأ صياح الرجال في الميدان، وتعالت الأصوات، وتقدم خليل بك زعيم الأشقياء وبدأ النزال، وصارت السيوف تتشابك الى أن يئس خليل بك وبدأ يفكر بالهرب.

أحس ظالم بك بذلك وقال له:

- لا تفكر بالهرب، لأنك لن تخلص مني ولن تفلت من يدي حتى وإن شفع لك جبريل أو عزرائيل ملك الموت.

نادى أحد فرسان خليل بك ويدعى حَميه " Hame " وكان الوحيد ذوالعقل الرصين بينهم قائلاً:

- سيدي، أتوسل إليك، إن هذا الشقي فيه خصلة من عزرائيل، أرضِه وأعطه ما يريد ودعنا نذهب ونتخلص منه.

استجاب خليل بك لنداء ذلك الرجل وتخلى عن خمسين حصاناً اضافة الى الغنائم لظالم بك.

⋆ ⋆ ⋆

اقتاد الغنائم من الماشية والخيل بحملها ودفعها باتجاه الطريق الذي يوصل الى معاقل العشيرة وتركها لتكمل سيرها.

وعاد هو باتجاه جواده، امتطاه وأعاد لف الحبال حول جسمه ثم توجه نحوالعشيرة منفرداً في طريق آخر غيرذلك الطريق التي كانت تسلكه المواشي والخيول.

وما أن دخل بين البيوت حتى صرخت به عائشة:

- أيها البائس المهلهل، أما زلت تتجول في الأزقة، أنسيت الأمر الذي أرسلتك من أجله؟

وتجمعت النسوة وانهالوا عليه بالعصي حتى سقط أرضاً وأودعوه الفراش.

قامت اثنتان من النسوة بحمل الرسالة الى حسين بك وتبلغيه الخبر عما تعرضت له العشيرة من نهب وسلب، ومن احتمال عودة اللصوص لخطف النساء والتحرش بالأعراض.

وهكذا عاد حسين بك ورجاله على الفور خائبين وغاضبين بعد عدة أيام.

ولكن ما حدث في ذلك اليوم بعد أن نال ظالم بك نصيبه من الضربات، وذهبت النسوة بالخبر الى حسين بك.

ما حدث هو أن محمد ابن العجوزة صادف أن عاد من الصيد، وقرب معاقل العشيرة التقى بقطعان الماشية والأبقار والخيول دونما راعٍ أو حارس، فاقتادها في طريقه الى العشيرة دون أن يعرف الأمر.

ولما وصل الى البيوت استقبلته الفتيات والنساء بالزغاريد، رغم استغرابهن هذه الشجاعة من ابن العجوزة، فقد استرد الغنائم من خليل بك.

وهكذا سطع نجم ابن العجوزة، ووسط الاعجاب والتقدير دخل المضافة وجلس على ذات الفراش المخصص لحسين بك، وأمال قلبقه بعض الشيء كنوع من الاعتزاز بالذات وعلو الشأن، وشرع يدخن وأعدت له القهوة.

* * *

عاد حسين بك ورجاله، ولاح قدومهم في الأفق كمطر الربيع، وتقدمت عائشة لاستقبال والدها الذي كان يتقدم رجاله، وبشرته بالخير وأن ابن العجوزة ثأر له وقضى على اللصوص واسترد منهم كل شيء.

عندما سمع حسين بك بالنبأ قال لنفسه:

- ليتهم أخذوا ابنتيّ الاثنتين، عائشة وغزالة، وهربوا بهما لكان أفضل من أن ينال ابن العجوزة هذا الصيت وهذا الشرف، لا شك أنه الآن سيطلب الزواج من ابنتي... كيف سأزوجه ابنتي؟.

اجتمع الرجال في المضافة يتحدثون في الأمر وبضرورة مكافأة ابن العجوزة.

في ذات الوقت مدت العجوزة رأسها من الباب وقالت:

- أيها الآغا، أمدّ الله في عمرك لنا، لا نريد منك أموالاً أو أغناماً، أتوسل إليك، فلئن كان ابني مقداماً ٱلى هذا الحد فإنا نطلب منك يد غزالة ولا نريد شيئا ٱآخر.

ورأى الجميع ذلك مناسباً وقالوا لبعضهم:

- مبروك لإبن العجوز، إنه يستحقها.

أما ابن العجوزة فقد أخذ يفتل شاربيه زهواً واعتزازاً، فقد أصبح نسيب الآغا وصهره.

وتم الإعداد لإقامة العرس واستدعوا الطبالين والمطربين وتهيأ الشباب والصبايا للنزول الى الدبكة.

* * *

أما غٰريك - غٰريك هو تصغير تحبب وشفقة لإسم غٰري وهو لقب ٱاطلق على ظالم بك - ، فقد كان متدثراً في فراشه قرب جدار البيت، في اليوم الذي تقرر فيه اقامة العرس وهو لا يعلم عن الأمر شيئاً، ولا يريد أن يرفع رأسه عن الفراش بسبب ما ناله من ضرب وشتائم على يد النسوة قبل عدة أيام، وحتى و هو في فراشه فإن الخادمة كلما مرت به ركلته وبصقت عليه، جيئة وذهاباً، بينما هو لا يرد عليها سوى أنه يتمتم بينه وبين نفسه:

- يا رب، يالله، يالمغضوب عليّ، حتى هذه العبدة تفعل بي ما تشاء، وكأنني آكل على حساب أبيها أو أنام وأعيش على نفقته. هذا هو غضب الله.

أما عائشة فقد قالت حين مرت به:

- غٰري، أيها الغريب الذي لا أعرف حسبك ونسبك، ألا تسمع قرع الطبول وأنغام الزورنا، قم وانظر كيف اصطف الشباب والفتيات في الدبكة كتفاً الى كتف.

رفع غٰري رأسه ونهض وسار باتجاه باب الخيمة ليرى الدبكة قد اكتظت بالناس وهم يرقصون على أنغام الزورنا وأصوات الطبول، فسأل عائشة:

- أيا أختاه ماذا يجري هناك، ماذا يحدث في هذا العالم؟

ردت عائشة:

- أيها المسكين، ألا تعلم ماذا يجري؟ لقد استردّ محمد ابن العجوزة، الفارس المقدام، ممتلكات وغنائم والدي من اللصوص، فقرر أن يزّوجه أختي غزالة، لكنها غير راضية بهذا الزواج، آه... لو ترى كيف تذرف الدموع؟.

فكر غـري لحظة وقال لنفسه:

- هكذا إذاً، فليقبض الله روح ذلك الظالم.

وتوجه بالرجاء الى عائشة قائلاً:

- أيا أختاه أتوسل إليك والى والدك، وبحق الله، لاتظني بأني متنسك معتزل، أنا أيضاً أريد مباهج الحياة، أرجوأن تعطيني سلاحاً من مخزن أبيك، أريد أن أذهب الى الدبكة.

ضحكت بعض النسوة ممن سمعن كلامه، لكنه كرر رجاءه وطلب أن يعطونه مسدساً يشده الى خاصرته ويذهب الى الدبكة قائلاً:

- سترونني كيف أكون، وماذا يمكن أن يحدث في مرابعنا، أتوسل إليكنّ، أعطوني مسدساً بحق الله.

قالت غزالة:

- أختي عائشة، بالله عليكِ، أعطيه المسدس، فليذهب.

ردت عائشة:

- أختاه، إن هذا رجل معتوه مجنون ولا يعرف هذه الأمور، وإن حدث أن ضغط بإصبعه على الزناد وهو في الدبكة، فقد يصيب الناس، عندها فإن أبي سيقطع أذني ويجدع أنفي بسبب هذا الأبله.

لكن غزالة ألحت على أختها كثيراً وأصرت على أن تعطيه المسدس.

وهكذا تم الأمر إذ شدّ ظالم بك المسدس الى خاصرته وتوجه الى الدبكة في الساحة، وما أن انضم الى حلبة الرقص ودخل الصف الى جانب الشباب والصبايا، بدأ بحركات مختلفة أدت الى خلل في ايقاع الدبكة واضطراب بين الناس، فأمسكه اثنان من الشباب وقالا له:

- يا هذا، أنت لا تعرف الرقص، ولا تدع الدبكة تدور والناس يرقصون، هيا اذهب الى المضافة واجلس هناك، وكُل ما شئت من اللحم والرز هناك.

واقتاداه الى المضافة حيث أجلساه بين الأحذية قرب الباب، وبدا حينها كأجرب حقيقي وهو الذي أطلقوا عليه لقب غـُري " الأجرب "، لكن عيناه كانتا محمرتين كفنجانين من الدم، واستغرب الناس من حمله المسدس، وتساءلو من أعطاه إياه يا ترى؟ بينما هو كان ينظر شذراً الى الجالسين في صدر المضافة الذين سألوا:

- ماذا بك يا غـُري تنظر إلينا شذراً؟

صرخ غـُري:

- أيا حسين بك، يؤسفني حقاً، أن تميل القلبق على رأسك مزهواً كأنك أحد ملوك الزمان، والله إن ذرة عقل لا توجد في رأسك ودماغك فارغ، أنا خادمك أقول هذا، ألا تسأل نفسك أن من استرد الغنائم وقتل اللصوص واستولى على أحصنتهم، يجب أن يعرف علامات هؤلاء اللصوص ومن يكونون؟ هلاّ سألت ابن العجوزة عن ذلك، وأيّ لصوص قتلهم وكيف استرد المسروقات؟ وهل اللصوص كانوا فرساناً أشداء، هل لإبن العجوزة أن يعطي أوصافهم؟ والله لم يقتل ولو أرنباً في البرية.

أسرع ابن العجوزة وتناول فردة حذاء ورفعها في وجه غـُري وقال: سأكسر خشمك هنا، يا ابن الكلب، إن هذا الكلام أكبر منك ومن أبيك.

فانهمرت الدموع من عيون ظالم بك، إنها الغربة، هكذا يصبح المرء فيها، لكنه صرخ قائلاً:

- يا سيدي، أقولها من قلبي، أقسم باسم الله أني أنا الذي حميت عرض حسين بك وأنا الذي استردت المسروقات، ومن الآن فصاعداً يا ابن العجوزة لو أنك تفوهت بأنك فارس الجبال سأجعل دماغك يلتصق بالحائط، وسأثبت ما أقول، فليأت معي اثنان من الرجال من ذوي الضمائر النظيفة الورعة، ولنحضر سرج فرس خليل بك ونرى سروج خمسين حصاناً، يا ابن العجوزة، إن البواسل والفرسان ليسوا من أمثالك، يعودون من الصيد ويدّعون بأنهم استردوا المسروقات وقتلوا الغزاة!!.

عندما قال ذلك، وافق الجميع على رأيه بأن يذهب اثنان من الرجال معه لإحضار السروج.

وتم الأمر بأن اتجهوا نحوالمكان الذي جرت فيه الواقعة وأحضروا السروج معهم ودخلوا بها الى المضافة.

لم يعرف ابن العجوزة عندها أين يختبئ ولم يعرف نفسه أهو ميت أم ما زال حياً، وخرج من المضافة وتوجه الى الساحة القريبة وأوقف الدبكة أمام هذه المصيبة التي حلّت به.

أما حسين بك فقد توّرد وجهه، وأصبح كوردة نضرة وصاح:

- قد يكون هذا الرجل حقاً انساناً مقداماً لم نعرفه من ذي قبل.

وطلب احضار الطبالين وعازفي الزورنا ليعزفوا في المضافة وصار الحفل على شرف " غـُريك " – تصغير تحبب لإسم غـُري – وعقد قرانه على غزالة.

وتم أخذ ظالم بك الى غرفة اخرى حيث ألبسوه لباساً فاخراً مما يلبسه حسين بك وحلقوا لحيته، فبدا كسيد حقيقي عندما عاد الى المضافة، ورأى حسين بك أن الرجل هو من سادة القوم، لذلك طلب منه أن يقبل تبنيه له وأن يكون والده بالتبني، لأنه ليس له أولاد ذكور وقرر أن يسلمه ادارة شؤون العشيرة فهو قد أصبح بمثابة ابن له، خاصة بعد أن أصبح زوجاً لابنته غزالة.

⋆ ⋆ ⋆

مضت ثلاثة أعوام، وأنجبت له زوجته ولدين، وذات يوم اشتد به الحنين الى أخيه ناصر بك، في الليل لم يغمض له جفن، ولم يستطع أن ينام.

سألته زوجته:

- ماذا جرى لك؟

قال:

- أتوسل إليك أن تطلبي من والدك بأن يأذن لي مدة شهر واحد، أتنكر في زيّ شحاذ وأذهب لأرى هل ما زال أخي على قيد الحياة.

⋆ ⋆ ⋆

لبس لباس شحاذ ووضع شالاً أبيضاً على رأسه وعماوة خضراء وحمل على كتفه كيساً مليئاً بالذهب ومضى نحومرابع شرف دين.

⋆ ⋆ ⋆

نظـر في حالـة المضـافة وقصـور أبيـه، لم يسـمع أي صـوت ولم يـر أي ضـوء وكأنهـا مهجورة، اقترب منها فطارت عدة حمامات وبعض من الطيور الاخرى، وأحس أن المكان مقفر وقد أصبح مكاناً لأعشاش الغربان والبوم، فقال لنفسه:

- والله لا أثر لأخي ولم يتبق من إرث والدي شيء.

وقد كان مصيباً في احساسه، فبالبفعل، كان حال ناصر بك ساءت قبل ذلك بعامين، إذ أنه بعد معاقبته لأخيه رأى فيه وجهاء العشيرة أنه غير مستحق للزعامة فجردوه من كل شيء، وأصبح بعدها لا يقدر حتى تحصيل قوت يومه، ناهيك عن اشعال النار وعقد المجالس، وبات يعيش على ما يصطاده من طرائد في البرية ويقيم في كهف بعيد لا يعرف عنه أحد شيئاً.

وأمام ذلك الحال، يئس ظالم بك المتنكر في هيئة درويش " نوع من المتسولين " من العثور على مكان أخيه ناصر بك حيث ما من أحد يعرف مكان اقامته.

لذلك نهض ذات صباح وتوجه الى البازار - السوق - واشترى مائة رأس من الغنم – فقد كانت أمواله كثيرة – اضافة الى الفواكه وكل ما يلزم لوليمة كبيرة، وجاء بها الى مرابع شرف دين.

وتساءل الناس ماذا جرى لهذا الدرويش؟ لكنه رد بالقول أنه رأى حلماً وطلب منه في الحلم أن يفعل حسنة في مرابع شرف دين، لذلك قرر أن يقيم وليمة كبيرة يدعوإليها جميع الناس بمن فيهم الضيوف وعابري سبيل وحتى المرضى، اضافة الى الوجهاء والزعماء، وذلك على مدى ثلاثة أيام كاملة.

وأقيمت الوليمة وجاء الناس في طوابير طويلة ضمت كل أبناء الديرة بمن فيهم العميان والمرضى، ونظر فيهم جميعاً دون أن يجد بينهم أخاه.

استولى الحزن عليه، وسأل في يأس شديد:

- ألم يبق هناك أحد؟.

أخبروه:

- والله لم يبق أحد إلا شخص غريب لا ينتمي الى هذه العشيرة وهو يعيش في كهف بعيد.

سأل:

- ولماذا لم يحضر؟.

وقبل أن يجيبه أحد، أطل من الجهة المقابلة شخص يحمل سطلاً في يده، رث الملابس، طويل اللحية والشاربين، ومهلهل المنظر، تفوح منه رائحة البؤس والحرمان.

تأمل ذلك الشخص الرث ونظر إليه مليّاً فعرفه وقال في نفسه:

- آه ... فديتك أيها الباشا!.

في ذلك اليوم بعد أن أكل ذلك الرث " ناصر بك " حتى التخمة، وبدأ يعبئ سطله من اللحم والطعام ويضغط بيديه في السطل كي يتسع لمزيد من الطعام، ذلك أن زوجته كانت قد علمت بأن درويشاً قد جاء الى مرابع شرف دين يوزع الهبات على الناس، فطلبت منه أن يذهب الى هناك ليأكل حتى يشبع ويحضر معه ما يستطيع حمله في السطل مؤونة عدة أيام لهم.

وشجعته على ذلك عندما تردد في الذهاب وقالت:

- اذهب، لن يأكلوك هناك، ولن يقتلوك، لم يعد لأحد شأن بك.

لذلك وبينما كان يعبئ السطل من الطعام نادى عليه أحد الرجال:

- كفى ناصرو" تصغير تحقير لإسم ناصر بك" وإن مددت يدك ثانية الى الطعام فسأكسرها، إن هذه الوليمة ليست لأناس قليلي الأدب من أمثالك.

ضاقت الأرض بظالم بك ولم يعد احتمال المشهد فصرخ في الحضور:

- أيها الناس، إن هذه الوليمة ليست من أجل أن يشفق الناس عليّ ويدعوا الله لي بالتوفيق والمغفرة، قولوا عني بأني سيد، أنا آغا، لقد أقمت هذه الوليمة لوجه الله ورسوله، خصيصاً للفقراء والمحتاجين، لذلك مَن منكم يمنع ذلك الفقير الرث من أخذ ما يشاء، فليعتبر بيني وبينه حرباً وليبارزني.

فرح الرث " ناصر بك " بينما أخذ الوجهاء يتهامسون بين بعضهم أن مايجري لا يمكن أن يكون من عمل درويش ناسك.

وفي ذات الحين عاد ناصر بحمله الى الكهف مسروراً وقال لزوجته غزالة:

- أطال الله في عمر ذلك الدرويش، فقد رد عني الذين حاولوا منعي من أخذ الطعام، وقال لهم بأن من يمنع هذا الشخص من أخذ ما يريده فليعتبر نفسه في حالة حرب معي.

تشجعت غزالة وأفرغت السطل وأعطته مرة ثانية وطلبت منه احضار المزيد.

* * *

صاح به ظالم بك:

- أيهذا الرجل، يا سليل بيت والدي، أنا متنكر في هيئة درويش، وما أنا إلا ظالم بك أخوناصر بك، أشراف وزعماء مرابع شرف دين.

واحتضن الأخوان بعضهما البعض في عناق حار، بعدها أكمل ظالم بك كلامه أمام القوم ولام أخاه على فعلته معه، وقال:

- لقد جعلتني أطوف الدنيا وبلاد الغربة من أجل زوجتك، وكان ذلك عاراً كبيراً تسبب في خراب بيتنا.

صعق ناصر بك بالأمر وتألم كثيراً وأسرع الى الكهف وأمسك بزوجته غزالة وطوح بها ورماها ترتطم بجدار الكهف، فتهشم رأسها ولفظت أنفاسها، وخرج يتبعه ابنه محمود بك وابنته الصغيرة.

جاء الى أخيه ظالم بك راجياً إياه أن لا يطلب منه العودة الى مرابع شرف دين، وقال:

- أخي ظالم بك إن ما فعلته بك لا تفعله بي وأنا مستعد لأن أكون خادمك أينما كنت وأرضى بكسرة خبز، ولكن لا تجعلنا نعود الى مرابع شرف دين، لأنهم من بعدك سيقطعون رأسي ويودعونني تحت جناح ملك الموت.

لكن ظالم بك دعى الجميع الى مضافة أبيه، وجعلها تصبح كما كانت أيام زمان، وأذاع الخبر في الديرة بأن ظالم بك أخوناصر بك قد عاد، وأن من تسول له نفسه في أن لا يحضر الى المضافة فليعتبر نفسه في عداد الموتى، وعلى الجميع أن يأتوا ويقبلوا حذاء ناصر بك.

لم يتجرأ أحد على الغياب وجاء الجميع الى المضافة التي أصبحت عامرة مثلما كانت قبل ذلك بسنوات، وأبدوا طاعتهم وولاءهم للأخوين، حتى أنهم ألحوا بالرجاء على بقاء ظالم بك في مرابع شرف دين، لكنه بعد أن انتهت اجازته عاد الى معاقل عشيرة حسين بك، مصطحباً معه أخاه ناصر بك، ثم عقد قران ناصر بك على عائشة، الذي عاد بها بعد ذلك الى مرابع شرف دين زعيماً للقوم. أما هو فقد بقي في كنف حماه حسين بك.

فاطمة صالح آغا[1]

يقال أن فاطمة صالح آغا، انشهرت بجمالها الخارق حتى أن الناس كانوا يرددون عنها بأنها لم تبق شيئاً من الجمال لبنات جنسها، لأنها استحوذته كله.

وحدث ذات مرة أنه في عشيرة اخرى كان هناك شاب معتد بنفسه هو محمد ابن زعيم العشيرة، وينظر الى الناس على أنهم أقل شأناً منه بكثير أو حتى أنهم لا يساوون شيئاً.

وكان من العادة أن يلعب الشبان في ساحة مخصصة للبيت لعبة الحوكي " وهي لعبة شعبية يتقاذفون فيها كرة صغيرة ".

وكانت هناك عجوز لها ولد وحيد تحبه كثيراً وترى فيه معنى للدنيا كلها. وذات مرة أثناء اللعب قام محمد ابن أمير هوسكا بالنزول الى الميدان، وصد الكرة بصدره ثم قذفها فأصاب خاصرة ابن العجوز مما أسقطت المسكين أرضاً، وبدا دون حراك كأنه ميّت منذ عدة أيام.

ولولت العجوز وأسرعت الى ابنها مرعوبة غاضبة، وقالت لإبن أمير هوسكا:

- ما بك تشمخ بأنفك وسط الفتيان، وكأنك خطبتَ فاطمة صالح آغا لنفسك.

عندما قالت العجوز ذلك، تجمّد محمد في مكانه وكأنه اندلق على رأسه تنكة من الماء، لكنه قال لنفسه:

- سوف نرى أيتها العجوز بعد أن يصح ابنك.

رشوا الماء على وجه الصبي وبعد فترة وجيزة صحا وقام من وقعته.

في منتصف الليل استل محمد خنجره وتوجه الى خيمة العجوز ونادى عليها:

---

(١) هذه الحكاية هي أيضاً من رواية المغني الشعبي رفعت داري.

- أقسم بالله العظيم لئن لم تـدليني علـى مكـان فاطمـة صـالح آغـا فـإني سـأعمل هـذا الخنجر في جسمك ولن أترك فيك عظماً سليماً.

تمتمت العجوز بعبارات مبهمة وكأنها تقول أية مصيبة نزلت عليّ؟ ولما لم تجد مفـراً قالت له:

- أيهـا الفتـى، إن خيمـة صـالح آغـا هـي في سـهل راونـدوز - وهـي منطقـة معروفـة في كردسـتان العـراق - وفي جهـة آلاسـنكي - أيضـاً منطقـة في السـهل المـذكور -، هنـاك يقـيم، والفقراء من أمثالنا يقصدونه عند الحاجة.

فعاد من عند العجوز وصمم على الذهاب الى ديار صالح آغا وفكر أنه بملابسه الفخمة التي يرتديها - ملابس الآغوات - لـن يبلـغ مـراده، لـذلك خلعهـا وارتـدى لبـاس راعٍ فقـير ومضى في الطريق مديراً ظهره للقدر، متجهاً نحوالظفر.

مضى ثلاثة أيام بلياليها، تمزقت خلالها لباسه أكثر مما كانت ممزقة من قبـل، حتـى أن قطعاً منها بقيت عالقة بأطراف الأشجار الكثيفة في الأجمـات والغابـات، الى أن وصـل الى منطقةٍ مع بزوغ الشمس.

رأى عدداً من الرعاة في المكان، ذهب إليهم وسألهم عن سيدهم:

- رعاة من تكونون؟

أجابوا:

- نحن رعاة صالح آغا

- حقاً

قالوا:

- نعم

- ألا تحتاجون الى راعٍ آخر

قالوا:

- لا والله، لا نريد رعاة غرباء

- لماذا؟

قالوا:

- لأنهـم يضـيعون الماشـية أو يسـرقون بنادقنـا أو يخطفـون بناتنـا، والله لا نقبـل رعاة غرباء

تأمـل في السـهل، رأى أن ألـف وخمسـمائة خيمـة قـد احيطـت بالخيمـة الكـبيرة، الـتي تتصاعد منها أبخرة القهوة مشكلة سحاباً كالغيوم. وقال لنفسه:

- لو أني ذهبت إليها فإن أحداً لن يوليني اهتماماً ولن يرد حتى على تحيتي.

لذلك قرر الذهاب الى خيمة الأطراف، وهذا النوع من الخيم تنصب عادة للعرسان المتزوجين حديثاً.

دخل الخيمة وقال:

- مساء الخير

- أهلاً وسهلا

- هل تقبلون ضيفاً؟

قالوا:

- تفضل أيها الضيف العزيز، الضيوف هم ضيوف الله.

أعدوا الطعام وبعد تناوله قال:

- ليتنا نذهب الى المضافة

قالوا:

- والله، نرغب بذلك ولكننا لم نجد أنه من المناسب أن يقول المضيف لضيفه، وما دمت أنت قلت ذلك فتفضل.

دخلوا المضافة، وما أن جلسوا حتى شاءت مشيئة الله أن يدخل أحد رعاة صالح آغا وقد قضى ستة أشهر في الرعي ليستأذن من صالح آغا لقضاء اجازته بين أولاده وعائلته.

- السلام عليكم

- عليكم السلام، ماذا تريد يا بنيّ؟

- سيدي، أكملت شهوري الستة، وقد اشتقت الى أولادي وعائلتي، أريد الذهاب.

رد صالح آغا:

- يا بني، لو أنك قلت ذلك قبل يومين أو ثلاثة لكنت عثرتَ على راعٍ مكانك، أما أن تريد الذهاب هكذا فجأة فذلك صعب.

وفي الحين تدّخل مضيف محمد وقال:

- سيدي، إذا كنت تريد راعياً فلدينا شخص مناسب.

- أين هو؟

قال المضيف: هذا هو- مشيراً الى محمد -

قال صالح آغا لمحمد:

- انهض

نهض محمد فارعاً مثل شتلة الريحان.

يقال عند الأكراد بأن الراعي إذا كان عاشقاً فإنه كلما قاد القطيع فإن الماشية تدر حليباً أكثر.

سأل صالح آغا:

- هل تستطيع الرعي يا بني؟

أجاب:

- سيدي، لماذا لا أستطيع، لستُ أعمى ولست عليلاً أو معتوهاً.

سلّموه عتاد الراعي وملابسه، وذهب لينام بين الماشية، لكنه لم يغمض له جفن طوال الليل من شدة رائحة الروث ورائحة أفواه الماشية وجلدها – وهو ابن البيكوات –.

في الصباح ستذهب الحلابات الى الحلب.

* * *

آه... سيدي

آه ... يقول قلبي.... آه

إنه الصباح، سطعت شمسنا وأطلت من بيت الله ونهضت فاطمة صالح آغا، وأسدلت على قامتها حُلَتها العروسية في حين بدا جيدها شفافاً كبلور السراج، وقد أمعنت في زينتها الى درجة ان المرء يستطيع أن يحصي مائة وخمسون درزة في زيّها.

وأعدت الفطور لراعي بيت والدها وأعطته ليد الوصيفة - الجارية - لتأخذه إليه.

كما أن الجارية لا تقل جمالاً من سيدتها مما يجعل المرء يظن أنهما من منبت واحد.

حملت الجارية الفطور، وقد شمّرت سروالها حتى الركبتين ونزعت عن ساقيها الجوارب الموشية - نسبة الى منطقة موش في كردستان تركيا الآن -، وذهبت الى البرية القريبة لحلب الماشية في استراحة الصباح.

لكنها ما أن وصلت لم تعد تعرف نفسها أين هي؟ وطار العقل من رأسها، وهي تحلب الشياه في حالة من الجنون دون أن تنتبه أن سيل الحليب قد وصل الى تحت ثوبها، ولم يدخل الإناء شيئاً منه، فعادت من غير حليب. في اليوم التالي حدث ذات الشيء، وتكرر المشهد ثلاثة أيام متتالية.

لاحظت خلالها فاطمة صالح آغا أنه لا يأتي أي شيء من الحليب من خيمة جاريتها، فنادت عليها:

- أية لعنة أصابتك، ماذا جرى لك وأنت لا تأتين ولو بقطرة حليب منذ ثلاثة أيام؟

ارتبكت الجارية محتارة في أمرها، لكنها جمعت شجاعتها وقالت:

- حسناً سيدتي سأخبرك بالأمر.

ذهبت إليها وهي قلقة حول مصيرها مع الراعي الذي أنزله الله من السماء، وقالت لنفسها:

- إن السيدة فتاة مثلي، أخشى أن تيمم بوجهها نحوالبرية وتخطف مني ذلك الراعي.

لكنها حين وصلت الى عند سيدتها قالت:

- آه... يا سيدتي من حال قلبي. لئن كان الأمر يُخفى عن العباد فإنه لا يمكن اخفاؤه عن الله، سيدتي، لقد جاء راعٍ جديد، وكأنه طائر بازي حط على الأرض، ذا عنق فتي، وأصابع كريش الكتابة، كلما تمعنت النظر فيه لا أرى شبهاً بينه وبين الرعاة.

لما سمعت ابنة صالح آغا ذلك الكلام كشفت عن ابتسامة خفيفة من بين شفتيها وقالت:

- أيتها الكلبة، كنت أعرف أن عينيك الزائغتين لا تلتفتان الى العمل في البرية، وتعودين لذلك من البرية دون حليب، ورغم أني لم أر البرية قط منذ أن كان عمري ست سنوات، وها أنا الآن في الحادية والعشرين من العمر، لكن من أجل كلامك هذا سأذهب غداً في الصباح الى الحلب وأعمل حلابة وأقسم بالله لو أن كلامك ظهر كذباً سأقطع أذنيك وأجدع أنفك وألقي بك في عراء العشيرة.

وافقت الجارية على الشرط وقبلت بما قالته سيدتها وأضافت:

- جربي أنت أيضاً يا مولاتي.

لا شك أن نداء القلب حار وشؤونه صعبة، لذلك فقد طال الليل بالسيدة ولم تعد تعرف متى سيطلع الصباح، وبدأت بعد منتصف الليل في اعداد نفسها للرحلة وترتيب زينتها وهي التي قامتها كنبتة الريحان، وجيدها كبلور السراج، ارتدت ثوبها العرائسي ووضعت العطور التي فاحت رائحتها حتى المضافة، ثم أعدت الطعام، من أرز بالسمن وإوزة مقلية، اضافة الى القشطة واللبن، كأنها وليمة لواحد من كبار السادة الضيوف، وحملته ومضت الى ميعاد الحلب.

جلست ابنة صالح آغا عند الإناء وبينما الراعي يحضر الأغنام والماعز، الواحدة بعد الأخرى. جلست وقد شمّرت عن ساعديها البيضاوين، ورفعت أطراف سروالها حتى الركبتين، فبانت ساقاها اللتين نزعت عنهما الجوارب الموشية، فكانتا بيضاوين غضتين تطوق بهما أطراف الإناء، وجبينها كان وضاءً كقمر أكمل ليلته الرابع عشر وصار بدراً، في حين كانت العينان أشبه بنجمتين.

أمام ذلك البهاء ، اختلطت الأشياء في عقل الراعي، وصار ليحضر لها الى جانب الأغنام والماعز ذكورها أيضاً، أي أنه صار يحضر الكبش والتيس أيضاً، تبسمت فاطمة صالح آغا للمشهد وقالت:

- لست أدري لماذا يحضر الكبش والتيس للحلب.

لكنها كانت تعرف السر في قرارة نفسها.

لم تتمالك ابنة صالح آغا نفسها قرب الإناء فنادت بصوت عال:

آه ... أيها الضيف

يا أيها الذي لا يستطيع لساني أن يلفظ أمامه كلمة راعي

فديتك أنا وأمي

نفديك صباحاً وفي الظهيرة ومساءً

أقسم أنني كلما أمعنت النظر فيك فإني أجد أن أقدامك ليست من تلك التي تنتعل الشاروخ - أحذية للرعاة -

وأن كفيك ليست من تلك التي ترتدي اللباد

ويداك ليست من تلك التي تحمل العصي والهراوات

إن كتفيك من تلك التي ترتدي الجوخ والعباءات البصراوية

وقدميك من تلك التي تنتعل الأحذية الفخمة.

ليتك تحكي لي مصيبتك التي أودت بك هنا الى ديار الغربة

ماذا أنزلت الأقدار بك؟

ما الذي جعلك تكون راعياً في خدمة والدي؟

عندما قالت فاطمة ذلك، أجاب محمد:

آه ... يا فاطمة... مائة آه من قلبي

آه ... إن الربيع في ديار والدك وفير معطاء

وهو صاحب ألف رأس من الماشية المدرة للحليب

وإذا كنت تعنين ما تقوليه، فها أنا ذاهب من هنا

هاك اللبادة والشاروخ والجوارب والعصا

يبدوأنه ليس لي نصيب هنا بينكم، لأنني ليس لي صلة أو علاقة بالأوصاف التي قلتيها عني

ردت فاطمة صالح آغا:

- أيها الضيف، إن قلبي دليلي، مائة مرة هو دليلي، صحيح ما تقوله إن الربيع في ديار والدي وفير معطاء ولديه ألف رأس من الماشية المدرة اللحليب الذي يصنع منه الغريبة - نوع من الحلويات- في المساء. فتعال إذاً، لتضع القطيع في الاستراحة، ولا شك أنك استمعت يوماً الى مواعظ شيوخ الاسلام، وعرفت ما صرفوه من أوصاف لجنة الفردوس وملذاتها، فتعال في منتصف الليالي وما بعدها، وافتح الأزرار عن تخوم صدري ونهدي، وتأمل بعينيك في الطبقة السابعة من الفردوس.

رد محمد — الراعي -:

- يا أيتها السيدة، مولاتي، أنا رجل فقير جئت أعمل لأحصل ما يكفي سد رمق أولادي الصغار، فعندي اثنا عشر ولداً وهم لا يجدون ما يأكلونه، وفي اليوم الذي يتوفر لهم الطحين لا يجدون ثمن شراء قطعة صابون، وعندما يجدون الصابون لا يجدون الطحين، وهذه هي حالتهم. وإن كنت لا تصدقينني فسأمضي من هنا وأرحل.

قالت فاطمة:

- أنا فاطمة صالح آغا

أنا اليمامة اللعوبة على سطوح البيوت

أنا في ريعان صباي، نهداي في تخوم صدري ثمرتان نضجتا للتو،

لا تصلحان لفمك القذر المتسخ، وإن شئت فاترك القطيع الآن وانصرف.

تدخلت الجارية وردت على سيدتها قائلة:

- والله ياسيدتي، لو أنك أعدت ذلك الكلام مرة ثانية، سأخبر والدك بالأمر وسيقطع أذنيك ويجدع أنفك ويلقي بك في الساحة أمام أهل العشيرة، أو أنه سيزوجك لخادم أو غلام من غلمانه.

أحست فاطمة بالخطأ، وقامت على الفور، مودعة الجارية هناك، وعادت نحومضارب العشيرة، ولما اقتربت منها قالت لنفسها:

- لعل الجارية تقدم على وشايتها فلا بد من ارضائها تماماً بشيء من المال.

وهكذا عندما لحقت بها الجارية ووصلتا البيت ناولتها ثلاث ليرات ذهبية فطارت الجارية من فرحتها وقالت لها:

- اذهبي غداً أيضاً الى الحلب.

لم يغمض جفن لفاطمة صالح آغا تلك الليلة، وسهرت حتى الصباح حيث ذهبت بكامل زينتها الى الحلب في صحبة جاريتها.

في ذات الوقت طلب محمد من أحد زملائه الرعاة بأن يبلّغ السيدة بأنه مريض، عندما تأتي الجارية، وطلب منه أيضاً أن يقوم بالنيابة عنه احضار الشياه لهما لحلبها، فوافق زميله بعد أن ناوله محمد شيئاً من الطعام الذي أحضرت له فاطمة. واعتبر الأمر عادياً، ولم يكن يدري خفايا الأمر.

وهكذا عندما حضرت فاطمة بصحبة جاريتها، واقتربت من مكان ميعاد استراحة الماشية للحلب، لم تر سوى الراعي الوكيل، ولم تجد أثراً لمحمد، وسألت جاريتها إن كانت قد رأته، قالت الجارية:

- والله لقد طار مني ومنك بسبب ما فعلتيه معه البارحة.

ترجّلت ابنة صالح آغا من فرسها، ونادت على الراعي الوكيل وسألت:

- أين هو الراعي محمد، أين اختفى اليوم؟.

أجاب الراعي الوكيل:

- والله يا سيدتي، أبعد الله الشر عنك، إن الراعي محمد مريض اليوم، وهو مستلق هناك في السفح.

عندما سمعت ابنة صالح آغا ذلك، صارت الدموع تنهمر من عينيها كالمطر وطلبت من جاريتها أن تحلب الأغنام ريثما تعود، لكن الجارية قالت:

- لماذا لا نذهب معاً لرؤية حاله؟

إلا أنها أصرت على رأيها وذهبت الى محمد منادية:

- أيا مريض بيت والدي، أيا محمد، إن قلبي قلب ناطق بين سائر القلوب.

سامحني بحق الله، لئن كنت البارحة قسوت عليك بكلماتي، وجعلتك تتأثر حتى سقطت مريضاً اليوم، أرجوك سامحني، إني أرضى بك وأقبلك، حتى ولو كان أصلك غجرياً أو طبالاً أو شحاذاً من اولئك الذين يصنعون السلال، فإني أقبل بك تاجاً على رأسي ورأس والدي.

رد محمد:

- أيا فاطمة، آه من قلبي!، إن خيمة والدك كبيرة كالسراي، في احدى جهتها سهول وفي الاخرى مرابع ومصايف. احدى جهتيها ضباب والأخرى غيوم وغسق، لعن الله العجوز التي قالت إن فاطمة صالح آغا فتاة رصينة في بيت أبيها، لكن الحال هو أنك تتبعين حتى الرعاة بعد اليوم الثالث من خدمتهم عند أبيك، إن خيمة والدك كبيرة كالسراي، ولكن خيمة والدي أكبر منها وأن القهوة في بيت والدي وفيرة أكثر مما هي في بيت والدك، كادت أن تمضي ستة شهور وأنا أعمل راعياً في خدة أبيك، من أجل قامتك العرائسية، قامتك الهيفاء الفارعة.

وبعد أن تعرفا على بعضهما هناك اتفقا على أن يأتي لخطبتها بعد انقضاء فترة خدمته المقررة ستة شهور.

وهكذا عاد محمد بعد انهاء خدمته في الرعي، عاد الى ديار أبيه، واصطحب معه مجموعة من خيرة الفرسان وعاد ثانية بصفة رسمية ليطلب يد فاطمة من صالح آغا.

اشترط صالح آغا عليهم – بعد أن أعطى موافقته – أن لا تعود ابنته ذات يوم مزعوجة بعد الزواج، لذلك طلب منهم الانتظار الى أن يأخذ رأي ابنته.

لكن محمد نهض قائلاً:

- أيا سيدي، أنا ابن أمير هوسكا، وقد عملت راعياً ستة شهور في خدمتك وذلك من أجل عيون فاطمة، وقد التقينا وتعارفنا.

قال صالح آغا:

- ما دام الأمر كذلك فإني سأشتري الجهاز ولوازم العرس على نفقتي.

وهكذا تحقق مرادهما.

جبلـي [1]

مقـدمة

إن التعامل مع الفولكلور محفوف بالعديـد مـن الاشـكالات الـتي يصـعب حلـها، أو حتـى التقليل مـن تأثيراتها في سـياق علاقـة التعامـل والتعـاطي، أيـاً كانـت أشـكال هـذه العلاقـة ومستوياتها.

وضمن هذا المجال يمكـن القـول أو ربمـا تأكيـد القـول بـأن العلاقـة مـع الفولكلـور هـي العلاقة مع المتحـرك الـذي يصـعب الامسـاك بـه كليـة، فهـو بشـكل دائـم، يحـاول الانفـلات ومزاولة حركيته الخاصة به، وهو بهذا يضفي على العلاقة معه طابع الاشكال والخلاف.

وفي صدد عملية الترجمة تظهر بعض الأمور الخاصـة بتقنيـات هـذه العمليـة، قبـل أن تدخل علـى الخـط حظـوظ المترجـم، فالترجمـة الموفقـة ربمـا كانـت تلـك الـتي تجمـع بـين الأمانة والجمال في شكلها الناجز.

لست أدري تماماً، إن كنت قد وفقت في عملي هـذا، كمـا كنـت أريـد رغـم أنـني حاولـت جهدي في أن أجمع بين الشرطين معاً الأمانة والجمال، في عملي هذا، رغم ميلـي الـدائم الى الأمانة ولو على حساب بعض الجماليات، وإن كانت لهذه الجماليات أهميتها.

جبلي، ملحمة فولكلورية قديمة، يمتد عمرها الى أكثر من مـائتي عـام، وهـذه الملحمـة غنائية ومعروفة على شكل أغنية ملحمية طويلة، لكنها تحمـل في ذاتها عناصـر متعـددة لأكثر من جنس أدبي، فهي الى جانب كونها أغنية ملحمية فولكلوريـة، تحمـل العديـد مـن عناصر القصة والمناخ الروائي، والأجواء الشعرية المتألقـة في أغلـب مقاطعها والشعر فيها

(١) هذا النص مع المقدمة صدر في دمشق في كتاب مستقل عام ١٩٩١.

قد جاء في شكل غنائي صرف، مما أدى الى أن يفقد من ألقه الشفاف الكثير لدى عملية الترجمة التي حرصت كل الحرص على أن تأتي أمينة للنص الأصلي.

وقد تظهر بعض الالتباسات حول العديد من الأحداث والشخصيات والمواقف إلا أن واقعية روح النص هي السائدة على كل ذلك، ولهذه الالتباسات ما يبررها، على ضوء الظروف التاريخية للنص وطبيعته، خاصة وأن هذا النص جاء في روايات عديدة تختلف عن بعضها في العديد من الأحداث والنهايات وحتى أسماء الشخصيات، وقد حاولت أن أوفق بين أهم الروايات له وأجمع ما هو جوهري للنص كما أعتقد، على سبيل المثال فإن اسم بطل الملحمة جبلي، هو في بعض الروايات جمبلي أو جنبلي أو حتى جبري، ولكن الروايات كلها تتقاطع في الخطوط الأساسية للأحداث والوقائع.

ولأن الترجمة في جانب منها، هي اعادة كتابة للنص بلغة أخرى، وللكتابة العديد من اخفاقاتها الى جانب كل نجاحاتها، حيث في هذا الصدد يمكن الإشارة الى أن الترجمة هي كتابة موازية للنص في لغته الجديدة دون أن يكون هناك تطابق الزامي متعذر.

وفي خصوص الشكل الذي أقدمت على صياغته، أود أن أشير الى أن النص في عمقه منقول على شكل مسرحية غنائية، وإن كان الصوت الذي يؤدي كل الأدوار واحداً، لذلك لدى ترجمتي له أبقيت على شكله الأقرب الى روحه، وبحيث يكون لكل عنصر من عناصر النص دوره وصوته الخاص.

وكما سبق أن ذكرت في البداية، بأن التعامل مع الفولكلور ينطوي على اشكالات شتى، إلا أن هذه الاشكالات في حقيقتها تترك العلاقة مفتوحة وغير مسدودة بأفق نهائي، فمثلما كان النص يخضع في سياق تاريخيته المتوارثة، لجملة متغيرات وتعديلات، قد تشمل الإضافات والإسقاطات المختلفة، فكذلك يكون التعامل مع النص، على صورة فتح باب للعلاقة التي قد تحقق ذاتها أولاً حسب توفر مستلزمات ومقومات التحقق.

جبـــلي

أيها السامع

يا أيها السامع هنا

ماعاد قلبي يقول شيئاً، ما عاد يحدث شيء

أدام الله مجد جبلي ابن أمير هكاري، ابن فاطمة رب البيت الكبير، البيت العريق، حيث يتصاعد صوت المدق في مهراس القهوة.

الذائع شهرته في العشيرة بين الناس، الذائع اسمه في الدنيا

يا إلهي في هذا الصباح

في غبش الصباح، حين ينهض نهضته، على أصوات المؤذنين وتكبيراتهم.

يحمل ابريق الماء وينزل سلالم الدرج للوضوء، يلمح في عمق السهل الفسيح عموداً من الضباب والغبار، قمته مشرئبة حتى السموات السبع، وقمة أخرى ترجع عائدة الى الأرض، حينها يظن أن قطيع الأغنام والماشية، ينحدر سائراً الى نبع الماء في المنحدر، لم يكن ظاناً أن رسول الدولة هو القادم، وحين يصل هذا الى فسحة الدار، يحييه، ويخرج من جيبه رسالة، يضعها في يدي جبلي.

يتناولها جبلي، ويفتح الظرف، يقرأ الرسالة أكثر من مرة، سطراً سطراً، إنها رسالة السلطان العثماني في مدينة استنبول، يقول فيها:

" يا بني، ما عاد قلبي يقول شيئاً، ما عاد يحدث شيء

دمت وحييت، صيتك ذائع في الدنيا، يسمونك جبلي ابن أمير هكاري، ابن فاطمة، صاحب الصوت وصدى المدق في مهراس القهوة، دمت وحييت لماذا تتوارى وتبتعد عن نفوذ الدولة؟

يـا بـني، علـى الولـد أن يحصّـل حقـوق وديـون أبيـه، عليـك أن تجهـز خمسـين فارسـاً مقداماً، تشدهم الى جنبك، وتتجه بهم الى أقاصي جبال طوروس، وتحصّل عشار وخـراج الدولة. يا بني على الولد أن يحصل حق أبيه ".

جبلي يقرأ الرسالة، ينادي صوتاً على الخادم أحمدي كاونده.

ـ جبلي:

يا بني أحمد، إن قلبي لمصاب مصاب، يا بني مصاب مـن مصـائب القـدر يضـرب قلـبي، لقد صدر أمر إليّ من استنبول، من الباب العالي، لذلك يجب أن تنادي على وجهاء ووزراء القوم والعشيرة جميعهم في أربعين ألـف بيـت مـن بيـوت الهكاريين، ليجتمعـوا هنـا في هـذا المكان، كل دقة من دقاتـك علـى سمـاور القهـوة عليهـا أن يرتـد صـداها مـن أقاصـي جبـال طوروس. يجب أن يأتوا جميعهم الى المضافة هنا.

" يسرع أحمدي كاونده الى دق الاشارة، حيث كل دقة منه تشبه نداء ومارش الدولـة، تصل الى الجبال والقمم ويرجع صداها من بعيد، فيدعوكل وجهاء ووزراء القوم والعشيرة في أربعين ألف بيت من بيوت الحكاريين للاجتماع في مضافة جبلي، وحين يرى جبلـي أن جميع وجهاء ووزراء القوم مجتمعين في المضافة، يقتعد كرسياً ويخاطبهم " .

ـ جبلي:

أيها الوزراء والسادة، مـاذا سـأخبركم، ومـاذا سـأخفي عـنكم يـا أبنـائي، مصـيبة القـدر تنزل بقلبي، أئن وأولول، أكاد أن أولول من وجعي ولا تميتني هذه المصيبة.

لقد جاءتني صباح هذا اليوم قرارات وأوامر الحكومة العثمانيـة، في مدينـة اسـتنبول، بأنه يتوجب على الإبن البار أن يحصّل حق أبيه، عليّ أن أقوم بجباية عشار وديون الدولة في أقاصي جبال طوروس، يا أبنائي، إن الذهاب يمكن أن أقرره، ولكن الإياب هو بيد الله.

فمن منكم اليوم سيتقدم ليرتدي الزي الأميري وشارة الإمـارة؟ إن الـذي سـيفعل هـذا، عليه أن لا يوصد باب المضافة، ويتركـه مشـرعاً لكـل القـادمين الـذين يتوافـدون كـل يـوم، ويسهر على خدمتهم وتقديم الطعام و الشراب لهم.

" حين ينهي جبلي كلامه، ويتأمل وجوه الجميع، لا يـرفـع أحـد رأسـه أو يجيبـه علـى طلبه، فالكل جاث على ركبتيه دون أي كلام أو إشارة، يستاء جبلـي ويشـعر بـوخزة مؤلـة في قلبه، ووطء ثقيل، فيسرع الى الهبوط من الدرج، وهـو محتـار مـن أمـر الـدنيا والنـاس،

وعندما تسمع أقوال جبلي، يكون في الوقت نفسه، أحمدي كاونده جالساً، عند الأم العجوز فاطمة، فيهم بالنهوض ويسرع الى أطراف الدرج، ويقف في مواجهة جبلي ".

ـ أحمد كاونده:

يا أميري، أفديك هذا الصباح، بقلبي وبرأسي، أطاب الله حضورك، لماذا تحمل همّ الخبز والملح، والضيافة الكريمة في مضافتك الواسعة، أو همّ أصوات مدق القهوة والسماور على نار مضافتك المشتعلة.

"عندها ينتبه جبلي، ويقول لنفسه، إن الطبال لو بقي يوم واحد من عمره، فإنه لن يترك مهنته وسيظهر أنه طبال، لكنه يسدي النصائح والتوصيات الى أحمد ".

ـ جبلي:

يا بني أحمد، إن ذهابي هو بيدي ولكن عودتي بيد الله، فيجب أن تبقى باب المضافة مفتوحاً، أن لا ترفع سفرتي من الأرض، فهنا يجب أن يأكل عابروالسبيل والمسافرون جميعاً، يجب أن لا تحجب اسمي بين القوم والعشيرة.

" وبعد أن يكمل توصياته بواجبات الضيافة والتصرف، يدخل الى غرفة الأم العجوز "

ـ جبلي:

أيتها الأم العجوز، أنا قلق ومهموم، إن الطبال يبقى طبالاً ولو بقي يوم واحد من عمره، فأرجوأن تعطي انتباهك الى أحمدي كاونده في غيابي، إنني ذاهب الى أقاصي جبال طوروس، أرجوأن تعطي انتباهك إليه في المضافة.

" يقوم جبلي ويهيء خمسين فارساً، ويقودهم الى أقاصي جبال طوروس.

وعلى مدى ثلاثة أيام بلياليها يقوم أحمدي كاونده، سيد البيت بعد أن سافر جبلي، بواجبات الاستقبال والضيافة، ويبقى باب المضافة مفتوحاً، وتمر القوافل المسافرة كل يوم بها، ألف يروح وألف يجيء، وذات صباح، حيث الطبال يبقى طبالاً ولو بقي يوم واحد من عمره وسيظهر أنه طبال، فقد قال أحمدي كاونده في نفسه، لو أني كنت صاحب مضافة لكان لي في بيت والدي ذلك العبء، ولكان له صيتاً يشيع في الدنيا، لتذهب المضافة وأصحابها الى الجحيم. ويقوم بإغلاق الأبواب كلها ويوصدها بإحكام، وكل من يأتي من

المارة يرى أن باب المضافة موصد، فيجتمع الجميع في ساحة الدار، بينما أحمدي كاونده يغط في نوم عميق في احدى زوايا المضافة على حصيرة صغيرة، منكباً على وجهه.

تشاهد الأم العجوز، فاطمة، جموع المسافرين والرواد، محتشدين في ساحة الدار أمام باب المضافة الموصد منذ الصباح، حيث سيعودون متعبين جائعين كما عاد من سبقهم من قبلهم، فتسرع الى صعود الدرج، وتسحب المزاليج والأقفال وتفتح كل الأبواب، وترى أحمدي كاونده واضعاً رأسه على الأرض، يغط في نوم عميق، وتوقظه بركلة من حذائها تكسر له ثلاثة ضلوع دفعة واحدة ".

ـ الأم العجوز فاطمة:

أيها السفيه، يا قليل الأدب، كيف فعلت هذا، أنسيت ما قاله لك الأمير، لماذا تغلق الأبواب في وجه القادمين وتحجب اسم ولدي بين القوم، وتقطع أرزاق المسافرين والمارة؟ وحين سيعود الأمير بالسلامة من أقاصي جبال طوروس سيقوم باعدامك فوراً.

" بين اليقظة والنوم يتفوه أحمدي كاونده بكلام بذيء للأم العجوز، وحين يصحو، يحس بالذنب ويتوسل ".

ـ أحمدي كاونده:

أيتها الأم العجوز، إن الذنوب تأتي من الصغار والعفووالسماح يأتيان من الكبار، أرجوأن تعفي عني وتضعي ذنبي تحت نعل حذائك..

" عبثاً يتوسل العفومن الأم العجوز دون أن يفلح، فينهض، ويسرع الى الحظيرة، ويهيء فرساً سريعة يمتطيها ويتجه الى البراري البعيدة والجبال، قاصداً غدير " قره بينكاري " حيث من هناك يشيع صيت السيدة بنفشة ابنة فارس بيك الزيباري، ويتناقل اسمها، بالحسن والجمال.

وفي الشفق الباكر يصل الغدير، حيث يترجل من فرسه، ويتلفت حوله، ليرى مخلوقة رائعة الجمال، بهيأتها الكرمانجية، تحث خطاها، كأنها أحد قياصرة الدولة في مشيتها، حاملة جرتها، لتعبئ الماء، فيتأملها أحمدي كاونده من أخمص قدميها حتى قمة رأسها. منبت الضفائر المحناة الطويلة، ويقول في نفسه سترك يا رب على هذه الجميلة، لأسألها إذاً، يبدوأنها بنفشة ابنة فارس بيك الزيباري، سأطلب يدها لسيدي، كي لا يقطع رزقي وخبزي من مضافة جبلي ابن أمير هكاري فإنه بهذا سيعفي عني ويسامحني.

ورغم أن أحمدي كاونده لم يعرف القبلة المحمدية أبداً في حياته، لكنه من أجل هذه الجميلة يتجه للقبلة ويؤدي فروض وسنن صلاة الصبح ويعود ليرى هذه الحسناء على الغدير حاملة الجرة ".

ـ أحمدي كاونده:

أيتها الأخت، إن مصابي لكبير وأليم، من شدة وجعي وألمي أئن وأعوي دون أن أفلح في دواء، أرجوأن تسامحي الغريب ولا تؤاخذيه، أعطني طاسة ماء من ماء الغدير، ثواباً لحسنك وأبهتك المهيبة، هذا الصباح.

" ولكن الحسناء الجميلة ترد عليه بجفاء وحدّة ".

ـ الحسناء الجميلة:

أيها الوقح، ألا تسمع خرير الجدول، وهدير الماء هل أنا هنا خادمة لأبيك، ماهذا الكلام الذي تقوله، ألا ترى باقات الأزهار والريحان والنباتات كلها تشرب من هذا الماء، أطفأ الله نار بيتك؟

ـ أحمد كاونده:

أيتها السيدة، ماذا قلت لك، حتى تجيبنني كل هذا الجواب الأليم هذا الصباح، إنني أتأملك، ستر الله على حسنك وجمالك، إنك تليقين بسيدي أمير رجال هكاري، لذلك أريد أن أسألك من أنت، ماذا يسمونك ، ابنة من تكونين؟ غداً سأخبر سيدي وسيأتي ليطلب يدك.

ـ الحسناء الجميلة:

أيها الوقح، مثلما أنت وقح كذلك هو سيدك بالتأكيد، أحرق الله هامتك، بما تتفوه هذا الصباح، ماذا تقول؟

ـ أحمدي كاونده:

أيتها السيدة، أدام الله مجد أبيك، ماذا تقولين؟ إني أتأمل هيئتك العروسية، وأظنك بنفشة ابنة فارس بيك، لا يليق بك أحدٌ سوى سيدي الفارس الكرمانجي ابن أمير هكاري. سأطلب يدك له على سنة الله ورسوله. فإنه قد يعفو عني ويسامحني، عندما أعود الى المضافة في معقل أربعين ألف بيت من بيوت الهكاريين.

ـ الحسناء الجميلة:

أيها الوقح، السفية، أحرق الله هامتك، كيف تنطق بهذا الكلام، أنا وإياك لنكن فداء موطئ أقدام جبلي، هذا الصباح، أحرق الله بيتك، فلتنظر الى غدير ماء سنجار، إنه مليء بالحشائش والنباتات، تفتحت حوله الورود والأزهار البرية، وكل البراعم، أفلحك الله، كيف تترك الحلوى وتركض الى حجر الشب، إن الجميلة التي تقصدها، بنفشة ابنة فارس بيك، هي سيدتي وأنا لها خادمة ووصيفة، أحرق الله هامتك كيف تتفوه بهذا الكلام بشأن ذلك الفارس؟

" حين تقول الحسناء هذا الكلام، وتوبخه، يدير أحمدي كاونده رأس فرسه باتجاه عشيرة فارس بيك الزيباري، وحين يتجه صوب عشيرة فارس بيك. هناك من معاقل العشيرة، يلمح فارس بيك، فارساً مسرعاً قادماً إليهم، فيقول في نفسه، لعله جبلي، ابن أمير هكاري هو القادم هذا الصباح، لذلك يستعد في ساحة الدار لاستقباله، وحين يصل أحمدي كاونده، يسرع فارس بيك الى الفرس، ويمسكها من لجامها ويقول لأحمد: تفضل، تفضل أيها الفارس الكرمانجي، وحين رأى جنبه منتفخاً لم يكن يعلم أن أحمدي كاونده يخبئ طنبوره تحت معطفه، فحين يهمّ هذا بالنزول من الفرس ويخرج رجليه من الركاب يلمح فارس بيك طرف الطنبور ويتعرف على حقيقة أحمد، وبعد أن يقضي في مضافة فارس بيك ثلاثة أيام بلياليها، وينال استحسان وثناء كل الزوار والمسافرين، فأحمد عازف ومطرب لم تنجب الدنيا مثله أحداً ولن تنجبه، حيث يضرم النار في الطين بعزفه الآخاذ والمثير، وبعد ثلاثة أيام بلياليها يستأذن من فارس بيك ".

ـ أحمد كاونده:

سيدي إذا أذنت لي فإني سأعود الى أميري الذي ذهب الى تحصيل العشار والضرائب، وأخشى من أنني إذا تأخرت أن يعاقبني، وإذا تكرمت بالسماح لي فإنني سأعود.

" لم ير بنفشة، ولكنه بعد أن قال بأنه سيعود، تم نقل الخبر الى الجناح الحريمي - مكان إقامة النساء - وقيل لبنفشة، يا أميرة، أدامك الله، لقد جاء الى مضافة والدك عازف ومطرب يضرم النار في الطين بألحانه وغنائه، وإذا الأميرة لم تعرف يوم فرح في بيت ذويها، فمن أين لها أن تذقه في بيت رجل غريب، دعيه يأتي ويعزف هنا بعض الشيء.

عندها، طلبت بنفشة من أبيها السماح بأن يرسل إليهن هذا المطرب، حيث ستذهب الى الغدير مع أربعين حسناء من الحسناوات، وأضافت، أنه إذا كان قد عزف لكم ثلاثة أيام بلياليها، فليعزف لنا ساعة واحدة على الأقل ".

ـ فارس بيك:

يا بني أحمد، لتذهب الى الجناح النسائي، عند بنفشة وتعزف للبنات قليلاً، وبعدها إذا كنت تريد العودة فليكن لك ما تريد.

" ويمضي أحمد الى الجناح النسائي، بعد أن كان قد قطع الأمل في رؤية بنفشة ويمضي الجميع الى الغدير، حيث أربعون حسناء سافرات، إلا بنفشة فقد وضعت خمارها، في حين أن أحمدي كاونده يتحمس في عزفه الى حد كأنه سيقطع الأوتار، دون أن يتمكن من رؤية وجه بنفشة، فقد انتهى وقته ويريد أن يعود، لكنه لا يستطيع حيث لم ير وجهها، فبماذا سيخبر جبلي، وعندها يبدأ بالثناء ".

ـ أحمدي كاونده:

أيتها الأميرة الحسناء، دام مجدك، لقد ذاع صيتك وشهرتك في الدنيا، في كل الأرجاء، وكما أعلم فإن رؤية وجه السيدات متعارف عليه للمغنين، فلماذا تخبئين وجهك عني، من بين كل الحسناوات هنا؟ يبدوأن العيوب والتشوهات التي فيك تجعلك تشعرين بالخجل من كشفها أيتها الأميرة.

ـ بنفشة:

ماذا في نفسك، ماذا تقصد أن تقوله هذا الصباح؟.

ـ أحمدي كاونده:

سيدتي، أريد أن ترفعي حجابك، لتظهر مفاتنك، وجدائلك المحنّاة، شعرك الممشط، فقد ذاع صيت جمالك بين القوم والعشيرة.

ـ بنفشة:

أيها الوقح، أضرم الله النار في هامتك هذا الصباح، فماذا أريد من الجناح الحريمي، وراء الستارة، لو أنني كنت سأعرض جمالي ومفاتني وأكشف عن وجهي لكل مطرب أو سائل من أمثالك؟ كيف سأكون أميرة وراء الستائر، وأدَّعي الإمارة عندها، أيبقى في القوم أو بين العشيرة من يحترمني؟

ـ أحمدي كاونده:

سيدتي، إن البلابل عاشقة لشجرة الورد، إن قلبي ليميل من الألم، في كل أحشائي يعتصر الوجع، لقد نبتت الدمامل داخلي، ومدّت شروشها الى كل جسدي، سيدتي، يبدوأن عيوبك وتشوهاتك لكثيرة جداً حتى أنك لا تريدين رفع الحجاب عن وجهك. لربما كانت جبهتك مثل قرص الروث، وأسنانك كأسنان الأتان، وشفتاك كشفتي البعير، وساقاك كساقي الفحّامين؟، ورغم كل هذا، ربما ما زلت تدّعين الإمارة في الجناح الحريمي، وتنتظرين فحلاً أحمقاً يدفع مهرك بضعة قروش، فتبيعينه نفسك.

" ما يقوله أحمد، ينزل مثل صاعقة على رأس بنفشة، وتزداد حنقاً وغيظاً في نفسها، وتمسك بالحجاب وتلقيه من عن وجهها، وتظهر بكامل اشراقها وأبهة جمالها ".

ـ بنفشة:

أيها الوغد الوقح، فلتنظر إليّ ملياً، ولتطفأ نارك الشريرة، فلتنظر، ولتعمل ما في وسعك كي تكتشف عيباً أو تشوهاً فيّ.

" يتأملها أحمدي كاونده من أظافر قدميها حتى منبت الضفائر المحنّاة، دون أن يعثر على ما يخدش جمالها المتوقد، عندها يقع أرضاً في حالة إغماء مفاجئة، ويسيل الزبد من فمه كأنما حساء يفور من إناء يرغي زبده من الفوران ".

ـ أحمد كاونده:

سيدتي، إن قلبي لمجنون، مجنون جداً، ملأته الدمامل والجراح، شل الله لساني، كيف لي أن أعيّرك بعد كل هذا الحسن والجمال، أيمكن لي أن أرى عيباً أو نقيصة؟، إنني لن أنسى هذا الجمال الذي آلم قلبي، الى أن يتكوم التراب عليّ ارتفاع شبرين، حتى القبر.

إن قامتك لبتدوعروسية الهيبة، وخصرك أهيف كالهلال، على رأسك شال عجمي، ووجهك وردي، أسنانك عدنانية، شفتاك مصحفيتان، وعنقك أبيض عاجي فيه شامة كخاتم الملك سليمان.

ـ بنفشة:

أيها الوقح، كيف قلت ذلك الكلام الرخيص في هجائي إذاً هذا الصباح، أطفأ الله ناربيتك، كيف استطاع لسانك أن ينطق بتلك الوقاحات؟

ـ أحمدي كاونده:

أرجوالعفومنك يا سيدتي، والصفح عني، فأنا مهموم كثيراً وخائف، أرجوأن تسامحيني هذا الصباح، تقولين أنك ستعطينني " بقشيشاً" سيدتي أنا لا أريد أي بقشيش منك، ولكن أرجوأن تعطيني شالك العتيق لأخذه الى زوجتي فاطية لتضعه على رأسها.

ـ بنفشة:

أيها الوقح، كيف تتجرأ عى قول هذا الكلام معي، أطفأ الله ناربيتك، أتريد أن تجعل مني فضيحة بين القوم، وفرجة للناس، حيث أينما رحلت وسافرت في مضارب " كونرشان " وخيمهم، وجلست في مجالسهم ستخرجه من عبّك ،وتطلق حسرة وتدّعي أن هذه ذكرى من بنفشة ابنة فارس بيك، كيف لي بعدها أن أمارس الإمارة وراء الستارة في مضافة أبي الكبيرة؟ بماذا تهذي أيها الوقح، أتريدني أن أكون فضيحة وفرجة للناس؟

" تحاول بنفشة جاهدة أن تتخلص من هذا اللجوج إلا أن اصرار أحمدي كاونده يجعلها تفشل في ذلك ".

ـ أحمدي كاونده:

أقسم لك، وأحلف بالله، إنني لن أري شالك العتيق لأحد، وأقسم أنني سأخذها الى فاطية لتضعه على رأسها.

ـ بنفشة:

أطفأ الله نار بيتك، أتريد أن تفضحني بين الناس حيث أينما ذهبت، ستخرجه لهم، وسيقولون أن بنفشة ابنة فارس بيك الزيباري، لم تملك ما تعطيه بقشيشاً لمتسول مشرد، فأعطته شالها العتيق، أتريد أن تجعلني فرجة وفضيحة أيها الوقح؟.

" تحاول عبثاً التخلص من أحمدي كاونده، دون أن تفلح في رده عن سؤاله، فترمي إليه بشالها العتيق، متظاهرة بأنها لا تعرف قصده الحقيقي ".

ـ بنفشة:

ليأكل رأسك هذا الشال، واذهب، وحين ستعود بالسلامة فلتطلب بقشيشاً كبيراً من عينيّ.

" يأخذ أحمد الشال ويضعه في جيبه، ويمضي، وكما يقال فإن ما حدث هو قريب بالكلمات وطويل في الحقيقة، فقد وصل الى معاقل العشيرة، وقد تعمّد أن يصلها في الليل

خشية أن يراه أحد، يريد أن يتسلل الى البيت خلسة ً دون أن يراه أحد، آملاً أن لا يكون جبلي قد عاد.

وفي الخيمة، خيمة أحمدي كاونده في عشيرة الهكاريين، حدث شيء آخر لم يكن في البال، حيث لديهم دن من جلد الماعز، مملوء بالسمن، وفي تلك الليلة تسللت كلبة الجيران إليه ومزقته فانكب على الأرض سائله، وأكلت الكلبة الباقي، وفاطية زوجة أحمد، من شدة غيظها أمسكت بعصا غليظة ووقفت تراقب قدوم الكلبة مرة ثانية من فرجة مفتوحة في الخيمة، وأقسمت أغلظ اليمين بأنها لن تتركها تفوت منها حية أو هاربة هذه المرة، وبينما أحمدي كاونده يحاول التسلل، من هنا ومن هناك، أقحم نفسه في تلك الفرجة المفتوحة، فهوت فاطية بالعصا عليه بكل قوتها ".

ـ أحمدي كاونده:

آخ، أيتها الساقطة، لقد قتلتيني، أتظنين أن في الدنيا ثمة أحمق يهواك، ويحاول المجيء الى فراشك ليلاً سواي؟

ـ فاطية:

آه يا أحمد، ماذا جرى، أهذا أنت، آه لم أعرفك في العتمة، ظننت أنها كلبة الجيران التي أتت قبل قليل، واستغفلتني فمزقت دن السمن وأكلته، أرجوأن لا أكون قد أصبتك بأذى كبير.

ـ أحمد كاونده:

حسناً، هل عاد جبلي؟ إنني لن أموت بهذه الضربة ولكن إذا كان جبلي قد عاد فإني سأموت.

ـ فاطية: والله لقد عاد.

ـ أحمدي كاونده: أتوسل إليك، ماذا سنفعل، ماذا تستطيعين أن تفعليه افعليه

" تمضي الى الأم العجوز السيدة فاطمة"

ـ فاطية:

سيدتي، يالسواد وجهي أمامك وأمام الله، إن أحمد قد عاد، وأرجوأن تتلمسي عند الأمير عفواً عنه، فالأخطاء تأتي من الصغار والعفوعنها هو من شأن الكبار.

" تأتي الأم العجوز الى أحمدي كاونده محتارة بعض الشيء، ثم تمضي الى جبلي وتدق الباب ".

ـ جبلي: من هناك؟

ـ الأم العجوز: أنا يا بني

ـ جبلي: - يفتح الباب – أهلاً وسهلاً، تفضلي يا أمي تفضلي، ولتأمريني بما تريدينه.

ـ الأم العجوز: هل حقاً أنك لا تعرف ماذا أريد؟

ـ جبلي: أرجوأن لا يكون ما تريدينه يتعلق بأحمدي كاونده.

ـ الأم العجوز: إنه هو يا بني

ـ جبلي: إنه لصعب يا أمي أن أسامحه.

ـ الأم العجوز:

يا بني، لقد شاب شعري الأسود في خدمتك، وأنفقت كل عمري لأجلك، وإذا كنت أتلمس منك العفوعن مشرد غريب، وترفض طلبي، فماذا ستكون قيمتي عندك بعد ذلك؟

ـ جبلي: حسناً يا أماه، أين هو؟ فليحضر إليّ.

" يحضر أحمدي كاونده وهو يرتعد من خوفه، ويمثل أمام جبلي ".

جبلي:

أحمد، هل كنت جائعاً يا بني، أم ينقصك الكساء، أم ماذا كان ينقصك، حتى فعلت فعلتك هذه، وأغلقت باب المضافة ووليت هارباً؟

ـ أحمدي كاونده: كلا يا سيدي الأمير، أدامك الله وأدام عزك ومجدك.

" وبالتأكيد، لو أنه أتيح لأحمد أن ينطق جوهرته، لأنقذ نفسه دون عناء من الهلاك ".

ـ أحمدي كاونده:

أيها الأمير، أفديك بنفسي هذا الصباح، ألا ترى أن كل شيء على ما يرام، ولائمك على الارض كما كانت، وباب المضافة مشرع كما كان للجميع، والقاصدون مقامك ما زالوا يأتون ألوفاً بعد ألوف. لقد قدّرت أن الأم العجوز لوحدها لا تستطيع أن تقوم بكل الأعباء، ففي كل هذا العمار الشاسع، لا صوت لولد يلعب، وما من امرأة تحمل عنك همومك الكثيرة،

لذلك فكرت أن زواج سيدي هو فرض وواجب عليّ، يجب أن أؤديه على أكمل وجه. سيدي الأمير، لقد كنت أعرف بوجود بنفشة ابنة فارس بيك الزيباري لذلك قررت الذهاب الى غدير - قره بينكاري - لأختار لك واحدة من الحسناوات تليق بك وتستطيع أن تقوم على مساعدة الأم العجوز فاطمة.

" يمد أحمدي كاونده يده الى جيبه ويخرج الشال العتيق، وحين يرى جبلي طرف الشال، ينسى ما هو عليه من موقف نحوأحمدي كاونده ".

ـ جبلي: يا بني أحمد، ألا زالت ضلوعك توجعك؟

" يبعث وراء المجبرين ويتم معالجة أحمدي كاونده، وبعد أن رأى جبلي الشال العتيق لم يعد يقدر على الانتظار أو الصبر والكتمان على مشاعره ".

ـ جبلي: يا بني أحمد، كيف نستطيع أن نذهب، وأن نراها؟ متى سنذهب؟

ـ أحمدي كاونده:

والله، يا سيدي، هذا تقرره أنت، إذا شئت فسنذهب الآن في هذه اللحظة.

" يجهز جبلي أربعين فارساً، ويقودهم الى مضارب فارس بيك، وحين يصلون معاقل العشيرة، يراهم فارس بيك مبدياً ترقبه واستعداده لهذا القدوم المفاجئ والمهيب. ويتم إعلام النساء في الجناح الحريمي، حيث يتم تحضير وإعداد الوليمة والطعام وكل تحضيرات الضيافة الكريمة وحسن الاستقبال.

يدخل جبلي المضافة ويتصدر المجلس، بينما تتعالى أصوات المهراس والمدق لتقديم وإعداد القهوة، ويستقبل جبلي بكل حفاوة وتكريم ".

ـ جبلي: كيف أستطيع أن أراها يا بني أحمد؟

ـ أحمدي كاونده: انتظر، سأجيبك عن هذا السؤال.

" بينما جبلي جالس، يستغل أحمدي كاونده فرصة مناسبة ويعبر الى عند بنفشة ".

ـ أحمدي كاونده: سيدتي، كيف سترون بعضكما؟

ـ بنفشة:

والله يا أحمد، في الفجر إذا حاول المرور من جانب الجناح الحريم، فيمكنه أن يراني، ولا سبيل الى أن نرى بعضنا غير هذا.

ـ أحمدي كاونده: حسناً.

" يمضي أحمدي كاونده الى جبلي ".

ـ أحمدي كاونده:

سيدي الأمير، عند الفجر، في غبش الشفق، إذا استطعت أن تراها، فقد فعلت خيراً، أما غير هذا فإنه يتعذر رؤيتها.

" في المساء، ولأن مضافة الأمراء تعج بالزوار والوافدين، فقد حاول أحمدي كاونده أن ينهي المجلس بشكل مبكر، حتى يتيح لجبلي الفرصة للنوم، لأنه سيستيقظ باكراً لرؤية بنفشة، لذلك أدخل الملل والضجر الى جوالمجلس فانفضّ بسرعة، عندئذ ذهب جبلي للنوم وبقي أحمدي كاونده الى جواره ساهراً حتى انبلاج الشفق وطلوع الفجر، حيث وقتها يوقظ جبلي ".

ـ أحمدي كاونده: سيدي لقد حان وقتك.

" ينهض جبلي، ويهيء نفسه لمقابلة بنفشة، الحبيبة المنتظرة، وكما كان الإتفاق، فكذلك حصل، حيث يرى جبلي وجه بنفشة وقامتها، دون أن يتمكن من العثور على عيب أو نقص فيها.

أمام جمالها الخارق، ينتاب جبلي حالة أقرب الى الغيبوبة والخدر، وبعد أن وافقا هناك على بعضهما، يعود جبلي الى أحمدي كاونده ".

ـ جبلي:

يا بني أحمد، عليك بتدبر الأمر، وحل المشكلة بأسرع ما يمكن- يريد من شدة ولهه لا أن يطلب يدها فحسب، بل أن يأخذها معه لو سمحت الأعراف لمكانتة بذلك.

" يقوم أحمدي كاونده بشرح الموقف لفارس بيك ويضعه في صورة الأمر".

ـ فارس بيك:

يا بني أحمد، إذا كنتم قد تفضلتم بهذا الطلب الصغير، بطلب يد - حرمة - فكما تشاؤون، وإذا أردتم الآن فليكن ذلك.

" هناك يتم الاتفاق وعقد المهر، وتناول الضيافة من الحلوى والكعك وبعد ذلك يتم الوداع ويعودون الى بيوتهم. ومن كثر الحساد والمخبرين، ذهب أحدهم الى درويشي نهره بيش ".

ـ المخبر:

درويش، أحرقك الله، في الليلة الماضية تمت خطوبة بنفشة، تفضل وهذه هدية لك – يناوله قطعة حلوى -.

درويش بك: على من تمت الخطوبة؟

المخبر: على جبلي ابن الأمير.

" عندها يقود درويش بيك كل عشيرته، ويقتحم عشيرة فارس بيك ويقتلعها من جذورها، يستولي عليها ويرحل بها وبعشيرته، وهناك لا يبقى أمام بنفشة حيلة أو وسيلة للدفاع عن نفسها، فتكتب رسالة الى جبلي ".

ـ بنفشة:

- في الرسالة- يا أميري، لقد اغتصبني درويش بيك وأخذني عنوة وبالقوة، فإذا كنت تحبني، فإنني أحبك وحتى لو أنجبت منه سبعة أطفال، فإني لك وأنت لي، أما إذا كنت لا تريدني فإنني سأعتبر الأمر على أنني حققت مرداي وقدري، وليستجب الله لمرادك.

" وتضع بنفشة الرسالة في مكان بحيث يراها جبلي إذا حضر الى المكان. بعد عدة أيام يعرض جبلي على أحمدي كاونده القيام برحلة الى غدير - قره بينكاري - عسى أن يتمكن من رؤية محبوبته ولو من بعيد، ويجهز أربعين فارساً لذلك الغرض، وتتم الرحلة، حين يصلون الى مكان عشيرة فارس بيك، حيث لا أحد ولا شيء سوى بقايا محروقة، وهناك يعثر جبلي على رسالة بنفشة ويقرأ توسلاتها واستنجادها به ".

جبلي: يا بني أحمد، عليكم العودة، وأنا لن أعود حتى أحضر معي بنفشتي...

" يحاول أحمد كاونده أن يثنيه عن عزمه ولكن دون جدوى، فيعود بينما جبلي يمضي في الجبال البعيدة وراء بنفشة وبعد شهور عديدة، يلتقي بأحد المتسولين في طريقه ".

ـ جبلي: ألا تبدل ملابسك بملابسي أيها الشيخ؟

ـ المتسول:

إنك تهزأ مني يا سيدي، فإن ملابسك هي ملابس الأمراء، وملابسي ملابس متسول فقير يعيش على صدقات الناس وعطاياهم.

ـ جبلي: صحيح ما تقوله، ورغم ذلك فأنا أريد أن أبدل ملابسي بملابسك.

" يخلع الشيخ ملابسه فرحاً ويعطيها لجبلي ويأخذ ملابس جبلي، الذي يرتديها ويمضي، متنكراً في زي متسول فقير، ولأن حذاء الشيخ من جلد الثور، فإنه يضغط على قدمي جبلي، حيث تنتشر الفقاقيع والتقرحات في قدمي جبلي نتيجة لذلك، وبعد مرور بعض الوقت، وبعد أن يكون جبلي قد اقترب من معاقل احدى العشائر، فإنه يعجز عن متابعة السير والمشي بسبب التعب والإرهاق وتقرحات قدميه.

وبعد أن يقترب من مضارب العشيرة، يرى عجوزاً في ساحة دار واسعة، تطبخ في قدر كبير شوربة اللبن، وهي تدير مطبوخها في القدر بملعقة خشبية كبيرة، وقربها كلبة تحوم مشمشمة رائحة اللبن المطبوخ تحاول مغافلة العجوز، فتضربها العجوز بالملعقة الخشبية كلما حاولت الكلبة الإقتراب تم تستمر في تدوير مطبوخها بملعقتها الطويلة. ومن شدة جوعه وتعبه، حيث حياة التشرد صعبة ومنهكة، يحاول جبلي الإقتراب من العجوز والحديث معها ".

ـ جبلي:

أيتها العجوز الطيبة، فليشرق أول شعاع للشمس من بيت الله، وليعم نوره قمم الجبال ومساحات الثلج الواسعة، إن الثلج أبيض حتى في قمة الجبال، ينساب من تحته الماء دون أن يشعر بذلك، حتى يذوي، أيتها العجوز، لست أدري إن كان الوقت صباحاً كي أقول لك صباح الخير، لقد أنهكني التعب والجوع، فأرجوالمعذرة، أريد شيئاً من اللبن لأسدّ به رمقي، سيكون هذا ثواباً لك ولزوجك وأولادكما.

ـ العجوز:

آه ... أيها الراعي، لقد أفقدني الألم أسناني وشعر رأسي، وقوتي، ومضى العمر بي، وأنا أكاد أموت من شدة تعبي وأوجاعي، إنك لمشرد بائس، فلتدخل الى مضافة أميري وسيدي، ولتمكث هنا سنوات، حيث لا أحد سيمنع عنك الطعام والشراب والمأوى، فالعديد من الشبان أمثالك يأتون ويمكثون عندنا شهوراً وسنوات.

ـ جبلي:

أيتها العجوز، إننا في الصباح، إنه الصباح يا عجوز، الصباح الباكر، وإن السيد الذي تتحدثين عنه، سيدك، ليبدوعظيم الشأن والكرم، إنه صاحب مجد ومآثر وخير وفير، أرجوأن تقولي لي من هو هذا السيد، سيدي الكرمانجي، من هو هذا السيد؟.

ـ العجوز:

يا بني الراعي، تسألني عن سيدي، يقال له سعدون بيك الطيار، أبا وضيحة، مضافته مفتوحة لكل مار وعابر من هنا، ولمن أراد البقاء والإقامة شهوراً وسنوات دون أن يلقى تأففاً أو امتعاضاً من أحد هنا، بل يتلقى كل الحفاوة والتكريم وحسن الضيافة، فلتتفضل وتدخل المضافة يا بني، الراعي.

" يدخل جبلي المضافة، واسعة مضافة سعدون بيك الطيار، خيمة سوداء يسندها ثمانية عشر عموداً من جذع الحور الثخينة، وأمام لسعات الريح تروح وتجيء بهزات خفيفة كأرجوحة طفل على غصن صنوبرة كبيرة، وتقوم عجوز سعدون بيك بإعداد طاسة من الحساء لجبلي وتضعها أمامه مع سلة الخبز، فيلتهم جبلي كل ما في الطاسة بنهمٍ وشهية، حيث أنه منذ شهور عديدة لم يتناول وجبة شهية كهذه، لقد كان يقتات الحشائس والنباتات على أطرف الجداول والسواقي.

وبعد أن يتناول طعامه ومن شدة الوهن والتعب يغط فجأة في نوم عميق، وعندما ترى العجوز أن الراعي – أي جبلي – قد غط في النوم تقول في نفسها، ربما أخذ البرد هذا الراعي، فيمرض ويصبح عبئاً عليّ، وبلية جديدة تنزل برأسي، فتقوم حينها وتلقي على جبلي أغطية السلوقي، التي كانت في ساحة الدار.

وبعد نوم عميق، حين يستفيق جبلي ويرى نفسه وقد غطته العجوز بأغطية السلوقي، يتذكر ما كان عليه في معاقل عشيرة الهكاريين المنتشرة حتى سهل سرويجة وحله روان، ويطلق زفرة عميقة، تحس بها عجوز سعدون بيك الطيار، وتعدها إهانة لها ولحسن ضيافتها واستقبالها لهذا الراعي المشرد".

ـ العجوز:

أيها الراعي، أطفأ الله ناربيتك، أبعد أن أجلستك في هذه المضافة الكبيرة وملأت بطنك بالطعام، وثم مضيت تغط في النوم والراحة، تتحسر وتطلق استياءك في وجهي، ألا زلت مهموماً تفكر بطعامك ومأواك، إن أمثالك زادهم على العشيرة وماؤهم من النهر، ماذا تريد؟ ألست ترى أنني عجوز متعبة، تقوس ظهري ونخرت أسناني وسقط شعري من الآلام والأوجاع أتريد أن تزيدني همّاً، أحرق الله هامتك؟ لماذا بعد كل هذا تريد أن تكون كئيباً ومهموماً؟.

ـ جبلي:

أيتها الأم العجوز، صحيح كل ما تقولينه عن الطعام والمأوى وما فعلته معي من حسن ضيافة واستقبال، وإنك عجوز وهرمة، متعبة من الآلام والأوجاع، صحيح أنه طعامي من العشيرة ومائي من البركة، أيتها الأم العجوز، لست مفكراً بالطعام والمأوى، إن قدمي لتوجعني كثيراً فقد غرزت فيها شوكة لعينة، جعلتها تتقيح وتؤلمني جداً، إن جسدي ليوجعني، وقد فقدت القدرة على التحمل، أتوسل إليك أن تأتي بإبرة وتنزعي هذه الشوكة من كعب قدمي، فربما جعل الله هذا المعروف لك سبيلاً الى دخولك الجنة في الآخرة.

ـ العجوز:

أيها الراعي، يا بني، إنني أعجز عن مسك الإبرة ويداي لا تطاوعانني على نزع الشوكة من كعب قدمك، انتظر قليلاً فسوف أنادي على وضيحة، ابنتي الوفية، فإنها لا شك سوف لن تذهب الى القبر على قدميها، وربما جعل الله هذا المعروف سبباً لأن يفتح لها باب القدر والنصيب فتلقى مرادها وحلمها في فارس مقدام.

" تقوم وتنادي على وضيحة ".

ـ العجوز:

يا وضيحتي، لقد جاء الى مضافة أبيك بائس مشرد إنه يعن ويئن من شدة الوجع، لقد غرزت في كعبه شوكة لعينة، وقد جاء يستنجد بي وأنا عجوز هرمة لا أستطيع أن أسعفه، إن صرخاته تجعل يهودي خيبر يتحول عن دينه ويشهر اسلامه، فهيا يا بنيتي، لتنزعي هذه الشوكة من كعبه، فربما جعل الله هذا المعروف دليلاً لك في أن يفتح في وجهك المراد والحظ يا عزيزتي، فلتأخذي الإبرة وتنزعي الشوكة من كعبه.

ـ وضيحة:

كيف تقولين هذا الكلام لي يا أمي؟ لسوف لن يبق راع أو مشرد في البراري والجبال إلا ويرى وجهي وهيبتي، فماذا أفعل إذاً وراء الحجاب والستار؟ لسوف أضع على نفسي العباءة وأرتدي الشروال، والقلبق، وأجلس في مضافة والدي، ماذا سأفعل بالرجال، إنني لا أريد الرجال يا أمي، سأصبح أنا رجلاً في مضافة والدي الكبيرة وأعدّ له القهوة وسأبقى أدق في المهراس.

" لقد اعتبرت العجوز جواب وضيحة إهانة لها ورفضاً لطلبها فأبدت استياءها وحنقها الشديدين ".

ـ العجوز:

يا صغيرتي، ربما فتح الله لك باب الحظ والقسمة من أجل هذا الراعي، أو هكذا تجيبين والدتك، وتقفين في وجهها رافضة أمرها، إنك يا وضيحتي لن تذهبي الى القبر على قدميك وهذا المعروف سيكون ثواباً لك في الدنيا والآخرة، وربما فتح الله في وجهك الحظ والنصيب الطيب، كي لا تموتي عانسة بائسة، إنني في يوم القيامة سأطالبك بتعبي وحليبي ولن أسامحك على هذا.

ـ وضيحة:

آه... يا أمي، أرجوك سامحيني، واغفري لي ذنبي، ظننت أنك تجربينني وتمزحين معي، فكما تشائين سيكون الأمر وإذا أردت أن يدخل الراعي بنفسه وراء الستارة أو فقط يمدّ قدمه الى وراء الستار وسأنزع الشوكة من كعبه، فلتأمريني، لم أقصد أن أسيء إليك أو ازعجك يا أمي، أرجوك سامحيني، واغفري لي.

" تنادي العجوز على الراعي – أي جبلي – ".

ـ العجوز:

أيها الراعي، تعال، ومد قدمك وراء الستارة فستنزع وضيحة الشوكة من كعبك.

" عندما يمد جبلي قدمه الى وراء الستارة، تنظر وضيحة بطرف عينها الى ساقه، وتصاب بالصدمة، وكأن تنيناً من جبال القفقاس أرعبها وأوحشها، تقدم بكفيها المحنّاتين، وأصابعها الطرية الناعمة، برفع القدم وتمسك ساق جبلي وتضعها على ركبتها.

تتحدث وضيحة الى نفسها وتقول: أيتها الأم العجوز الهرمة، أعرف أن العمر أفقدك التوازن والشعر والأسنان والقوة، ولكني لم أكن أعرف أنك لا تستطيعين تمييز الرعاة من الأمراء، إن هذا ليس إلا جبلي ابن أمير هكاري، متنكراً وهو يبحث عن بنفشة التي خطفها درويشي نهره بيش، وقد أصبح لهما أولاد وذرية عديدون. وضيحة تتحدث الى جبلي"

ـ وضيحة:

أيها الراعي، فديتك بقلبي وروحي هذا الصباح، أرجوك أن تسامح أمي العجوز، الطاعنة في السن والتي أصبحت تخرف فقد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر، أرجوأن تسامحها، تفضل... تفضل، فديتك بنفسي، فلتدخل وراء الستارة أنت جئت تبحث عن بنفشه التي أصبح لها أولاد عديدون، فلتدخل وترى جمالي، أي مأخذ سيكون لك عليّ، أي عذر سترى فيّ؟.

ـ جبلي:

أيتها السيدة، أتمزحين أم أنك تهذين، لنفدي كلانا جبلي وموطئ أقدامه، أدام الله مجدك، أنا راع من رعاة البراري والجبال، حملت لبادتي وأنا أطوف الدنيا وبلاد الغربة، أقوم بالرعي عند السادة والآغوات، إنني أرعى عاماً وأقبض سلفة ستة أشهر مقدماً لأقدم الطعام والكساء لأطفالي وأسرتي في كهف من كهوف الجبال، إن أنينهم يطن في أذنيّ، لنفدي كلانا جبلي وموطئ أقدامه، كيف تجورين على نفسك وتقبلين براع مشرد؟.

ـ وضيحة:

أيها الراعي، ليكن ذلك، ولتكن راعياً عند والدي، غداً في الفجر ستستيقظ وتأخذ المفاتيح لتفتح أبواب الحظائر وتمضي بالأغنام الى البراري، وحين سيطلع أولى شعاعات الشمس سأعدُ نفسي، كما يجب على عروسة ذلك، أمام المرآة حيث في الضحى سأحمل القدور وأجيء الى راعيي لأحلب أغنامه وأعود، وفي العصر سأبعث لك بأحد الخدم الذي هم كثيرون في مضافة والدي ليتولى عنك رعي الأغنام، فقبل الغروب ستأتي وأنا سأكون قد أحضرت لك الماء الساخن، وأقوم على حمامك وأسدل عليك ثياب الإمارة والسيادة، وستدخل الى سريري بأمر الله ورسوله، أيها الراعي. لتنظر إذاً الى قامتي، أتستطيع أن ترى نقيصة أو علامة قبح وبشاعة؟ إنني أتحداك في ذلك.

ـ جبلي:

أيتها السيدة، أدام الله مجد أبيك، إن والدك لقاسٍ وغير سموح، لن أقوم برعي أغنامه، فربما في يومٍ ما أطلقتْ عصاي وأصبتْ قدم إحدى الأغنام وكسرتها، فسوف يحرمني من معاشي وحقي، وسلفة الستة شهور، حينها ستموت اسرتي جوعاً على أبواب المغاور والكهوف.

ـ وضيحة:

أيها الراعي، إذا كنت لا تريد أن ترعى الأغنام لوالدي فليكن كما تريد، تعال، لتجلس في المضافة، ولتطحن القهوة بالمدق والمهراس وحين ستجتمع المجالس هنا فسوف أشعل لك النار، لتعد القهوة، وستدخل الى وراء الستارة وتدخل معي في سريري بأمر الله.

ـ جبلي:

لا يا سيدتي، لا أريد أن أكون قهواتياً فأنا لا أعرف هذه الأشياء، أنا راع من رعاة الغنم.

ـ وضيحة: وأنا أريد الراعي ولست أريد الأمراء.

" تحاول وضيحة إقناعه لكنها تعجز، حيث جبلي يرفض ويتحايل كثيراً في رفضه، يكاد أن ينفجر قلب وضيحة فقد تدفقت مشاعرها وتأججت نار رغباتها كفوران القهوة. وكموج البحر كانت رغبتها تتقلب وتتعالى، وقد عجزت عن المقاومة وكبت نفسها، فاضطرت هنا الى ممارسة الضغط واستعمال القوة متحصنة بمكانتها، وتجره الى وراء الستارة، فيرضخ جبلي ويستسلم للقدر وللأمر الواقع، وكأن الله قد استجاب لتوسلات ورغبات وضيحة، وبعد أن يتم عقد قرانهما، على سنة الله ورسوله، دون أن يكون لجبلي أية رغبة في ذلك، وكل يوم يمر عليه في السرير الزوجي كأنه عام أو أكثر، وكأنه في زنزانة عميقة وسجن ضيق.

بعد عدة أيام وحين تكون وضيحة قد غفت تماماً مخدرة من النشوة والمتعة وكأنها سكرانة، وراحت في نوم عيمق، ينتهز جبلي الفرصة ويتسلل من الفراش، حيث يبحث عن لباد الرعي ويجده فيضعه على كتفه، ويحمل إبريق ماء بحيث إذا رآه أحد فيظن أن ذاهب للوضوء، وهكذا يخرج، عبر مضارب العشيرة وبعد أن يجتاز كل المضارب والخيم، يضع إبريق الماء على الأرض ويولي هارباً صوب الجبال والأقاصي الوعرة، مقسماً اليمين أنه لن يقرب مرة أخرى من مضارب - كونرشان - ولو أنه سيبقى مشرداً الى الأبد.

وبعد سبعة أيام بلياليها من السير في الجبال والطرقات الوعرة لم يعد يستطيع الاستمرار، نتيجة التعب والوهن، ومرة أخرى يلتقي غدير - قره بينكاري - ويقول لنفسه هنا في بلاد الغربة من سيتعرف عليّ ويكشفني؟.

وينزل الى الغدير، حيث المارة يروحون ويجيئون، وقد وقفت على الغدير حسناء جاءت لجلب الماء. قريباً منها يقف جبلي ويطلب منها طاسة ماء ".

ـ جبلي:

أيتها الأخت البهية، أرجوالمعذرة، إني عطشان، أريد طاسة ماء من الغدير، فأرجوأن تعذري أخاك الغريب، وهذا ربما كان ثواباً لك في الآخرة.

ـ الفتاة:

أطفأ الله نار بيتك، وأحرق هامتك، لو كنت ذا أصل ونسب، لكنت حملت معك زادك وماءك، أيُطلب الماء من النساء على الغدير؟.

ـ جبلي:

المجد لماء سنجار وضفافه المديدة، ونباتات الجداول، أدام الله مجد أبيك، كيف ترجميني بهذا الكلمات، كما يُرجم الشيطان بالحجارة، ماذا اقترفت من ذنب أو خطيئة؟ لقد طلبت منك طاسة ماء كما يطلب الأخ من أخته، كيف تؤلينني بهذه الكلمات الجارحة، في هذه الدنيا المنافقة؟ ما أنا إلا غريب أتجول هنا وهناك، وقد دفعتني الحاجة إليك، لست من هذه العشيرة ولا من هؤلاء القوم، جئت فقط لأشرب شيئاً من الماء وأمضي.

ـ الفتاة:

ألا تسمع خرير الماء وهدير الجدول، إن كل هذه الحشائش والنباتات تشرب منه، هل أنا خادمة أبيك، حتى تطلب مني أن أقدم لك طاسة ماء؟.

" بينما الفتاة ترد جبلي عن طلبه وتكيل له الشتائم والإهانات، تظهر فجأة -كله خان - ابنة شيخ العرب قادمة الى الغدير، وهي ترى وتسمع ما يجري بين الفتاة وجبلي ابن أمير هكاري، فتوجه حديثها الى الفتاة ".

ـ كله خان:

أيتها السفيهة الوقحة، أتعرفين الى من تتحدثين بهذا الكلام الرخيص؟ لنفدي هذا الأمير بقلوبنا، أيتها السفيهة.

" وتلتفت كله خان الى جبلي تحييه ".

ـ كله خان: أيها الأمير، أرجوالمعذرة والعفو، ما هذه إلا سفيهة مجنونة.

" تمد كله خان يدها الى عبها، وتخرج كأساً ذهبية، تملؤها ماء وتضعها على كفها المحنّاة، ثم تقدمه الى جبلي، بعد أن تقف أمامه باستعداد واحترام ".

ـ كله خان:

تفضل... تفضل، أيها الأمير، يا أميري الكرمانجي إن الصغار يرتكبون الذنوب والكبار يعفون عنهم، أرجوالمعذرة والعفويا سيدي، اليوم ستحل ضيفاً عليّ في القصر وسأحتفي بك، أنت ضيفي أيها الأمير.

ـ جبلي:

أيتها السيدة، لقد أقسمت اليمين بأن لن أدخل مضارب كونرشان، هنا على الغدير يمكنك أن تقولي ما تريدينه.

" تحاول كله خان، عبثاً أن تقنعه، فتضطر الى أن تمسك يده وتقوده الى الجلوس بقرب الغدير، وبينما يبدأان الحديث، تقوم الجواري والوصيفات بإقامة حلقات الرقص والدبكة حولهما، وفي الجهة البعيدة، حيث وضيحة، بعدما تستفيق ولا ترى جبلي الى جوارها تشك بالأمر، فتقوم وتبحث عنه، وحين ترى أن لباد الرعي الذي خبأته غير موجود، تتأكد من أنه قد ولى هارباً منها. تنادي خادماً من خدم أبيها ".

ـ وضيحة: أتعرف ذلك الشخص الذي كان معي البارحة؟

ـ الخادم: نعم يا سيدتي، إذا رأيته سأعرفه.

ـ وضيحة: حسناً، كم يدفع لك والدي أجرتك؟

ـ الخادم: ليرة ذهبية في الشهر يا سيدتي.

ـ وضيحة:

سأعطيك كل يوم ليرة ذهبية، اذهب وابحث عنه وأينما وجدته تعال وأخبرني بسرعة، وسأعطيك مكافأة مائة ليرة ذهبية بعد عثورك عليه.

" يتنكر الخادم بزي متسول ويمضي في البراري والجبال، وفي يوم من الأيام يصل الى غدير - قره بينكاري- حيث يسمع زغاريد وأصوات النساء وأغانيهن، ويقرر أن يتفرج قليلاً، وحين يقترب، يرى ذلك الشخص جالساً الى جوار كله خان ابنة شيخ العرب، يعود الخادم على الفور ويخبر وضيحة بالأمر".

الخادم: لقد وجدته يا سيدتي.

وضيحة: أين وجدته؟

ـ الخادم:

وجدته على غدير قره بينكاري، جالساً الى جوار كله خان ابنة شيخ العرب.

" تستقر الغيرة في قلب وضيحة وتستبد بها، ولا تقدر على الإنتظار وضبط النفس، وتذهب الى أبيها ".

ـ وضيحة:

أدام الله مجدك يا أبتي، لقد داهمنا المحل والجفاف وسوف لن يكون هناك نقطة حليب في ضرع شاة، وسيموت الغنم كله جوعاً، علينا أن نرحل يا أبتي، الى المراعي الخضراء القريبة من مناطق حدود شيخ العرب، لذلك يا أبتي، عليك أن تأمر برحيل ستة آلاف بيت من بيوت العشيرة الى تلك المناطق.

ـ الأب: إذا كان الأمر كذلك، فلنسرع يا بنيتي، ولننقذ الحال.

" يأمر الأب برحيل ستة آلاف بيت من العشيرة وتمتطي وضيحة فرساً أصيلة وتدخل الهودج، ويبدأ الرحيل لأيام عديدة، حيث يبلغون المناطق المتاخمة لغدير - قره بينكاري - ويحطون رحالهم هناك.

تنزل وضيحة من الهودج وتترجل، ثم تحمل الجرة وتتجه الى الغدير، موحية بأنها ذاهبة لتجلب الماء وحين تصل الى الغدير وترى الصبايا والوصيفات مجتمعات في حلقات الرقص والدبكة، في حين تتصاعد أصوات الطبول وموسيقا الزورنا، فإنها تشق صفوفهن وتتقدم نحوجبلي تجلس الى جنبه الأيسر، بعد أن تحييه وتقدم السلام له، حيث في جنبه الأيمن تجلس كله خان ابنة شيخ العرب.

ويستمر الطرب والفرح، وأحاديث الحب والمودة، وخلال فترة قصيرة، يعم الخبر جميع المناطق المحيطة والعشائر المقيمة هناك، حتى يصل الى مسامع كبير مشايخ العرب وأميرهم الذي يستاء للخبر، ويعتبر الأمر إهانة وطعناً في الكبرياء والشرف، ويجهز اثني عشر فارساً ويمتطي بنفسه فرساً أصيلة ويتقدمهم في السير ".

الأمير العربي:

أهكذا إذاً، استرخص شيخ العرب وسعدون بيك الطيار، الشرف والأخلاق؟. لابأس،حين سنصل سأخلصه من عذاب الدنيا، هذا الشقي، وألعن قبر أبيه.

" حين يقترب الأمير العربي من الحفل يتأهب الجميع لاستقباله وتقديم الطاعة له، حيث الجميع يعرفه، ولأن أحداً لم يعرف أنه قادم للقضاء على جبلي، استمرت الفرحة ودق الطبول والموسيقا. وبينما يده على سيفه وقد أخرجه من الغمد حتى المنتصف، ليجهز على جبلي بشكل فوري، فإنه يلاحظ أن هذا الشخص ليس شقياً أو طائشاً أو مشرداً، وإنما تبدوعليه أمارات الوقار والإتزان وحسن المظهرورفعة الشأن ، وحين يرى في جانبه الأيسر وضيحة ابنة سعدون بيك الطيار وفي جانبه الأيمن كله خان ابنة شيخ العرب، فإنه يقول في نفسه إن أياً منهما لا تليق بمقام هذا الفارس. عندها يلتفت الى فرسانه ويتحدث إليهم ".

الأمير العربي:

يا أبنائي، لا يحصل إلا ما يقرره الله، صاحب اللوح والقلم، إن هذا الانسان ليصعب عليّ قتله، فلتشرق الشمس من بيت الله وتطلق شعاعاتها في الكون كله، إن قتل الكرام لجريمة لا تغتفر، وقتل الانسان الجميل أيضاً لا يغتفر، انظروا ... انظروا.

إن أية من الفتاتين الجالستين الى جنبيه، لا تليق بما هو عليه من وقار وجمال وحسن مظهر، إنه لا يليق إلا بابنتي كويجك جميلة.

" بعدها يتحدث الأمير العربي الى جبلي بعد أن يصافحه بمودة حارة ".

الأمير العربي: تفضل أيها السيد الأمير، فأنت اليوم ضيف عليّ في مضافتي.

" ويحضر لجبلي فرساً أصيلة، ثم يمضون بحفاوة ويعودون الى مضافة الأمير العربي الذي يقوم بشراء كل الحاجيات اللازمة لتجهيز عروسين، ثم يأمر بعقد قران جبلي على ابنته كويجك جميلة، وأمام كل ما يحدث لا يستطيع جبلي أن يبدي رفضاً أو تذمراً ويقبل بالأمر الواقع فيتزوج كويجك جميلة على سنة الله ورسوله.

وخلال فترة ستة شهور لا يتاح لجبلي أية فرصة للهرب، وبعد فترة تزيد على ستة شهور، في ليلة من ليالي العشيرة، يستغفل كويجك جميلة ويتركها تغط في نوم عميق، حيث يقوم ويبحث عن لبادة الراعي فيجدها، ويتجه الى الجبال والبراري مقسماً اليمين بأنه لن يقترب مرة اخرى من مضارب كونرشان أو من مناطق الغدائر والينابيع، مقرراً أنه سيتجنب أي انسان أو مخلوق في طريقه.

وبعد أيام طويلة من التعب والإرهاق والجوع، حيث يكاد بطنه يلتصق بظهره، يصل قمة عالية في جبلٍ وعر، وهناك في البعيد وفي زاوية قريبة من السهل المتاخم، يرى قطيعاً من الغنم سارحاً ومنتشراً فيقرر أن يذهب الى راعي ذلك القطيع ".

جبلي:

لا شك أن هذا الراعي لم يكن مولدتي، فلأذهب إليه وإذا لم يكن في كيسه بقايا خبز أو طعام، فعلى الأقل سيحلب لي شاة ويعطيني طاسة حليب، أسدّ به رمقي وجوعي.

" يمضي الى الراعي وحين يقترب منه، يجفل القطيع ويتحرك، وينتبه الراعي، يرى جبلي أمامه ".

الراعي: آه... يا سيدي الأمير، كنت أفضّل الموت على أن أراك على هذه الحال.

جبلي: ما الذي تقوله أيها الراعي؟ هل جننت؟

الراعي:

لا تحاول أن تخدعني، سيدي الأمير، وإذا كان ثمة دواء لدائك فهو عندي، لقد كبرت على يديّ، وربيتك سبع سنوات على كتفي حيث كنتَ خادماً لأبيك يا سيدي.

جبلي: حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فلتقدم لدائي الدواء إذاً.

الراعي:

لنبادل ثيابنا، وأنا سأتخلى لأجلك عن تعب سبع سنوات قضيتها في الرعي هنا وأرحل، عليك أن ترتدي لبادتي. وفي الظهيرة، لتجعل من العصا واللبادة خيمة صغيرة تجلس تحتها، وإياك أن تنام، إن حليمة توز وبنفشة، لهما نفس الملامح والجمال تقريباً، أي الجارية والسيدة ستأتيان الى حلب القطيع، وإذا كنت رجلاً فسوف تتدبر الأمر.

جبلي: أشكرك على عظيم فعلتك وشهامتك، وحسناً سأقوم بكل ما أوصيتني به.

الراعي: وداعاً ... وداعاً

" يمضي الراعي، وينتحل جبلي صفته واضعاً على كتفه اللبادة، ويصطحب القطيع الى فيء شجرة كبيرة علامة، حيث هناك قريباً من مكان استراحة القطيع، يغرز عصاه في الأرض ويضع اللبادة عليها، ويضطجع دون أن يتمكن من مقاومة النعاس الذي يستبد به، فيغرق في نوم عميق.

في ذلك اليوم تجيء حليمة توز لوحدها الى حلب القطيع، وتستغل الفرصة حيث تركض الى الراعي – أي جبلي – وهناك تداعبه وتقبله، حيث يستفيق جبلي على هذا المشهد يظن أن الراعي قد خدعه ومارس حيلة عليه، ووضعه مكانه، لكنه يصمت دون أن يكشف أمره، وتعود حليمة توز الى الحلب.

في اليوم التالي تجيء بنفشة مع حليمة توز، وكما حدث في اليوم الأول فقد غفا وراح في نوم عميق ".

ـ حليمة توز:

سيدتي، إن السيدات يحبن المزاح والمداعبات، انظري، إن الراعي نائم، وأنا سأداعبه بعض الشيء، ما رأيك؟

ـ بنفشة:

كما تريدين، إنه ليس غريباً على أية حال، فهو يقوم على خدمتنا ويشقى معنا كثيراً، وبالتأكيد سوف لن تفعلي فعلة شنيعة أمامي.

" تسرع حليمة توز الى الراعي، ومن شدة احتراقها وتشوقها الى مداعبته، تقبله وتجلس عليه مبدية كل فنون المزاح والمداعبة والتقبيل، ومن شدة اندفاعها وحماستها فإنها لم تميز جبلي عن الراعي القديم ولم تشك بالأمر، ينهض جبلي ويقود الأغنام الى مكان الحلب، وحين يمسك برأس كل شاة أمام حليمة توز لتحلبها، فإن وهج خنجره يسطع في قعر الإناء، وبعد أن تتعب من الحلب ترى أن الإناء فارغ، ليس فيه أية نقطة من الحليب الذي انكب كله على الأرض، دون أن تحس بذلك عندها تشتبه بأمر جبلي وتركض الى بنفشة مبدية عجزها ".

ـ حليمة توز:

إن رأسي يوجعني جداً، وأنا متعبة سيدتي، لا أستطيع أن أكمل الحلب.

ـ بنفشة: حسناً يا بنيتي، استريحي في فيء الشجرة وسأقوم أنا بحلب الأغنام.

" بنفشة بهيأتها الكرمانجية، المثقلة بالأساور والسلاسل الذهبية، تتقدم الى راعيها لتحلب الأغنام، يقود جبلي الأغنام إليها، وحين يلتمع وهج الخنجر في قعر الإناء فإن بنفشة تكابر وتقنع نفسها بأنه وهج حليّها ومجوهراتها ولا تبدي أية امارة لانفعالها وتوترها.

وحين ينهي جبلي عمله ويقود آخر شاة إليها وتحلبها، فإنها لا ترى في الإناء نقطة حليب، فتنهض في دهشة وذهول بينما الحليب يقطر نقطة نقطة من قامتها العروسية وزيّها الكرمانجي، وتعود الى حليمة توز ".

ـ بنفشة:

يا بنيتي لست أدري أية مصيبة حلت بنا، وأية بلية حدثت، لقد نزل بنا كل غضب الله.

ـ حليمة توز:

الحقيقة يا سيدتي، إني أشك في أمره، فإن هذا الراعي لا يشبه راعينا القديم.

" فجأة، وباحساس غريب تكتشف بنفشة الحقيقة ".

ـ بنفشة:

آه... أيها الأمير، يا أميري، لقد حزن قلبي وانحنى، سبع سنوات وأنت تعمل راعياً للمغتصب درويشي نهره بيش، لماذا لم تكشف عن نفسك كل هذه السنوات، اليوم إذاً قد جئت لتحل ضيفاً على حبيبتك، منتظرتك كل هذه الأعوام. اليوم إذاً، أنت ضيفي، في فيء هذه الشجرة الشوكية، في فيء شجرة الشوك جئت الى منتظرتك يا أميري، سبع سنوات وأنا أنتظرك، وأنا عبدة وأسيرة في بيت درويشي نهره بيش، دع القطيع يأكل رأس أصحابه، وتعال الى صدري، لتصبح على تخومه أميري الأبدي.

" وبعد أن يتعرفا على بعضهما، وتكون حليمة توز بعيدة عنهما، تتحدث بنفشة الى جبلي، بعد أن تكون قد عبرت عن التياعها واشتياقها ".

ـ بنفشة:

يا أميري، عليك أن تتمارض، وتـُظهر كأنك على وشك الموت والحشرجة في حلقك، فكما يحضرون الشيخ على شخص يحتضر، ثم يديرون رأسه صوب القبلة وتتلى عليه الآيات، عليك أن تتظاهر مثل ذلك المحتضر تماماً.

" تتجه الى حليمة توز ".

ـ بنفشة:

أسرعي يا بنيتي، وأخبري درويشي نهره بيش، بأن الراعي مريض على وشك الموت، ليسرع ويأتي حالاً، إنه لمن الظلم أن نتركه يتلوى من الألم ويموت بين أيدينا. إن القطيع

قد تشتت في البراري، وقد يداهمه الذئب فلا يترك منه شاة واحدة، ليسرع حالاً، وأخبريه بأنني أنا التي قد أرسلتك.

" تمضي حليمة تـوز الى بيت درويشي نهره بيش ولا تجده في البيت، فتذهب الى مضافة فارس بيك، حيث تراه جالساً في المجلس وتنادي عليه، وتخبره بما طلبته السيدة - ـ بنفشة.

ينهض درويشي نهره بيش بسرعة واغتباط، لأن بنفشة طلبت منه ذلك، وقد نطقت بإسمه لأول مرة منذ سبع سنوات، ويركض الى المكان ناسياً أن يلبس حذاءه من شدة الاغتباط ".

ـ بنفشة:

لماذا تأتي إليّ، أيها الوقح، أتراني لأول مرة، ألم تشبع مني سبع سنوات، ألا ترى أن القطيع تاه وتشتت في البراري، إن الراعي مريض، وحرام أن نتركه يموت بين أيدينا، فلتسرع إليه وتنزع خفيه، لا تؤلمه أكثر، البسهما والتحق بالقطيع.

درويشي نهره بيش: أمرك يا سيدتي.

" يمضي درويشي نهره بيش وراء القطيع، وتعود بنفشة الى الحديث مع جبلي ".

ـ بنفشة:

يا أميري، سأذهب الآن الى البيت، وأبعث الخدم ليحملونك على أساس أنك مريض تتلوى من الألم ولن يسقطونك على الأرض لأنهم إذا جعلوا ولو كعبك يصل الى الأرض سأقطع رؤوسهم.

" بنفشة تذهب وتبعث الخدم لاحضار جبلي، على أساس أنه الراعي المريض، وتعدّ الحمام والماء الساخن له، حيث يأتون به ويضعونه أمام بنفشة التي تنزع عنه على الفور ثياب الراعي، وتضعه في الطست كطفل صغير لتغسله. وبينما هي مشغولة بالإحتفاء بأميرها، تظهر والدة درويشي نهره بيش ".

والدة درويش:

يا بنيتي، إن هذا لرجل بالغ، وليس طفلاً صغيراً، إنك لم تقومي حتى على خدمة درويش هكذا ولو مرة واحدة، رغم أنك زوجته منذ سبع سنوات.

ـ بنفشة:

أيتها الشمطاء، إذا تفوهت بكلمة أخرى سأكسر ضلوعك، هيا اذهبي الى الخيمة الكبيرة وراقبي القطة كي لا تأكل اللبن.

والدة درويش: يا بنيتي، كما تريدين، لن يتجرأ لساني أن يقول شيئاً بعد الآن.

" وبعد أن يستعدان للهرب، وكأن هناك من أخبر ابنها، الذي سمّته جبلي الصغير، بالأمر، حيث بدا الصغير الذي في القماط وكأنه يدرك ما يجري وما سيحدث، فيطلق بكاءه وصراخه، دون أن تتمكن بنفشة من تهدئته، أو ايقاف بكائه المستمر، رغم أنها تتابع هز سريره دون انقطاع ".

ـ بنفشة:

نم يا صغيري، يا فرخ مغتصبي، نم، سأحمل قماطك في بلاد الغربة، وأبحث عن كل النجارين والحدادين وأصنع لك سريراً من خشب الجوز، أو من الحديد والفضة، سأخذك معي يا بليتي، ويا دم قلبي.

" تلتفت الى جبلي بعد أن تنوح فوق سرير الصغير ".

ـ بنفشة:

اسرع يا أميري واحضر فرساً أصيلة، كي نمضي قبل أن يكشف أمرنا، ويلحق بنا درويشي نهره بيش، فارس الرمادية، حيث سيقتلنا على الطريق.

جبلي: حسناً، سأحضرها على الفور.

ـ بنفشة:

أرجوك يا أميري، أن تدعني أحمل هذا الصغير معي، صحيح أنه فرخ مغتصبي، إلا أنني لا أستطيع أن أتركه ورائي، أنا خجلة منك، أرجوأن لا تظن أن أحِن الى شيء من دوريشي نهره بيش، لكنه صغير بريء.

جبلي: كما تريدين، إنه بريء، لا أريد أن أحمل ذنباً تجاهه في الدنيا أو في الآخرة.

ـ بنفشة:

إن العشيرة كبيرة، وخوفي أن يكشف أمرنا، فيلحق بنا دوريشي نهره بيش ورجاله ويقتلوننا على الطريق، أرجوك أن نسرع في الهرب. لست أدري إن كان العشق أقوى من عاطفة الأمومة، لست أدري.

" يحضر جبلي فرساً أصيلة ويجهزها كما تجهز في الحرب، وينادي على بنفشة بأن تأتي، بينما بنفشة ترفع الصغير الى صدرها وتغمره بالتقبيل والشم، ثم تضعه في سريره وتمضي الى جبلي حيث تبدأ الرحلة المحفوفة بالمخاطر والفضيحة.

وعند الفجر، تسمع والدة درويش صراخ الطفل وبكاءه، فتتعجب من الأمر، إذ كيف لا تعمل أمه شيئاً لأجله، وحين تذهب لتوبخ بنفشة، تكتشف الحقيقة، فتنادي على الخدم، وترسلهم في طلب دوريشي، الذي يجهز فرسانه ويمضي في أثر جبلي وبنفشة، حيث يلحق بهما في جبل بعيد ويضرب من حولهما الحصار ".

ـ بنفشة:

يا أميري لنختبئ، لقد أحكم هذا الظالم حصاره حولنا وسوف يقضي علينا ويقتلنا.

" يحاولان الاختباء في كهف قريب، إلا أن دوريشي ورجاله يعاجلونهما ويقضون عليهما. وهناك تنتهي الأشياء والرغبات والأحلام، وتبدأ فصول جديدة للحياة، حيث في معاقل الهكاريين يرى أحمد كاونده في الحلم أن جبلي في حالة من الضيق والعوز لا تطاق، وتقوم العشيرة بتجهيز المئات من الفرسان، الذين يبدؤون حرباً عنيفة مع عشيرة دوريشي نهره بيش، ويقال بأنهم يقضون على دوريشي نهره بيش ".